١٠

حِسّيّون وعذريّون

ألوان الحب .. ألوان الطيف :

ولكى لا يحدث التباس بطيف الحبيب الذى ناجاه الشعراء كثيرا فى قصائد الغزل المشبع والغزل المحروم تعبيرا عن التوق والحاجة ، أو شكلا من أشكال المناجاة ، فاننا أردنا تدرج الألوان السبعة المعروفة التى تتمازج لتعطى لونا واحدا فى الرؤية الظاهرة ، هو مركب من شعاعات وانعكاسات متداخلة . وقد يكون تقسيم الحب اشكالا حقيقيا حين نحاول أرساءه على أساس ، أو نبحث له عن بداية : هل هـ الحب ؟ هل هى المحبوب ؟ هل هى التعبير الفنى (شعرا أو نثرا) عن هذه العاطفة . مثلا : حين يهوى رجل من قراء مكة وزهادها ، ونعنى عبد الرحمن بن أبى عمار ، الملقب بالقسّ لعبادته ، حين يهوى جارية حرفتها الغناء ، وكانت ، كما يقول الأصفهانى – يدخل عليها الشعراء فينشدونها وتنشدهم ، وتغنى من أحب الغناء . من أين نبدأ فى محاولة تصور مثل هذه العلاقة ؟ كيف التفت الزاهد إلى ربيبة الشهوات وعلقها حتى يقول فيها :

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها ... فاعجب لما تأتى به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما ... سبل الضلالة والهدى أقسام

حتى يجرى بينهما مثل هذا الحوار فى خلوة من الرقباء : « قالت له يوما : أنا والله أحبك . قال : وأنا والله أحبك . قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك . قال : وأنا والله أحب ذاك . قالت : فما يمنعك ! فوالله إن الموضع لخال ، قال : انى سمعت الله عز وجل يقول : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الاّ المتقين) وأنا أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تؤول إلى عداوة »[1] . ليس باستطاعتنا أن نعتبر قصة الحب القصيرة النفس هذه بمثابة صراع خاطف بين الخير والشر ، يمثل الراهد جانب الخير ، وتمثل المغنية جانب الشر ، وان يكن باستطاعتنا أن نقول انهما مختلفان ، وأن كلا منهما يمثل النغمة الناقصة عند صاحبه ، فلعبا معا تمثيلية قصيرة جدا ، حاول كل منهما أن يتمرد على صورته النمطية الجاهزة التى ساقته اليها ظروف متداخلة شديدة التعقيد . والجدير بالتأمل حقا فى سياق الخبر – كما جاء فى الأغانى – أن القس سمع غناء سلامة على غير تعمد منه لذلك ، فبلغ غناؤها منه كل مبلغ ، ثم رآها فأحبها هذا الحب العنيف

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣٥ .

الذى رأينا جانبا منه فى الحوار السابق ، ولكنه – كما يقول الخبر « قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النسك » .

ان المهتم بالقراءة النفسية للأحداث والشخصيات باستطاعته أن يقول ان القس أيقظ فى الفتاة اللاهية بذرة التجرد الفطرية فى أعماق الانسان ، كما يمكن أن يقول عكس ذلك ، اذ أيقظت الفتاة فى اعماق العابد الزاهد شعورا أسبق وألصق بالحياة البشرية فى عصرها الموغل فى البدائية ، وهو الميل الجنسى واجتناء اللذات والتوق إلى المتعة الحسية . وقد تقدم كل منهما نحو صاحبه خطوة ، ولكنه مالبث أن أحسّ بمغبة الاستمرار ، الذى سيعنى لكليهما حياة جديدة لم تكن لأيهما من قبل ، وهى مغامرة نفسية لا يستطيعها كل انسان ، ولكنها قبل ذلك مغامرة اجتماعية ، إذ لا يدرى أحد كيف يمكن أن يتعامل معهما المجتمع فى ظل علاقتهما المستحدثة لو أنهما قبلا بها وثبتا عليها . ومن هنا كان التراجع السريع ، إلى العبادة عند القس ، وإلى الغناء عند سلامة . ولعل هذه القصة التى تحاول أن تكون حقيقية ، وليس ثمة ما يمنع ، ويمكن أن نجد لها أشباها فى عصرنا بدرجات متفاوتة ، تفرز أمامنا ألوان الطيف كما يفعل المنشور الثلاثى فى حزمة من الضوء ، ان قمة التجرد تلتقى بقمة اللذة فى موقع واحد ، وحين نمعن الرحلة فى أعماق الشعور الانسانى سنجد الضدين يلتقيان . وسنجدهما – على اختلافهما – يحظيان بالتقديس ، يحدوهما معا نبل المقصد ، وهذا النبل يعنى على التحديد أن تكتسب كل صفة شيئا من طبيعة الأخرى ، وهو المعنى الذى يجعل من هذا الخبر عن القس وسلامة قصة حب ، ويجعل المحدثين يضعونها فى سياق الحب العذرى رغم عبارات الاشتهاء الواضحة ، فليست مقاومة الفعل هى الفاصل بين أنواع الحب – فى رأينا – وانما التصور أو القناعة التى تحرك المتحابين . على أننا – فى هذه القصة كما فى غيرها – لن نستطع اغفال دور المجتمع الذى يدفع أطراف قصة الحب إلى مسالك يرتضيها ذوقه العام وحاجاته النفسية ، وان لم تكن هى بالضبط ما يرغب فيه المتحابان . واذا صح ما نزعمه من أن المحبوبة تكون عادة ذات تأثير بالغ فى رسم المجال الذى تتحرك فيه عواطف المحب ، فان الاختلاف هنا قد فرض على المحب أن يبدى مقاومة ضارية تجاه نفسه ، فيكون هذا الانصراف وتلك العودة السريعة إلى ما كان عليه من نسك !!

ليس القس وسلامة الاّ مثلا سريعا لعلاقة حب ، وصفها القدماء بالورع ، ووصفها المحدثون بالعذرية ، وينبغى علينا الآن أن نغادر النموذج الفردى إلى الظاهرة بشكل عام ، ظادرة الحب متحررا من أية صفة اضافية : عذرية أو حسية ، لعلنا نقترب من أصول التقسيم المأثور . ونرى فيه رأيا يجعلنا أكثر قربا من الطبيعة البشرية ، التى نراها تتجاوز التقسيمات المفترضة .

على المستوى المجرد البحت ، ليست علاقة الحب أكثر من صلة طبيعية بين ذكر وأنثى . ولكن مجموع الاثارات العاطفية والتصورات والأفكار الممهدة والمصاحبة والناتجة عن هذه الصلة هى التى تختلف ، واذا صح أن هذا كله يؤثر ويتأثر بنوع الصلة ومستواها ، فان هذه الصلة بدورها تختلف بين كل شخصين باختلاف مزاجهما أو طبائعهما ومستواهما الروحى واتجاههما الأخلاقى ، ثم هى أولا وأخيرا تتأثر بطبائع المجتمع : عقائده المتوارثة وحاجاته النفسية وضغوطه الموجهة لسلوك الأفراد . والمؤطرة لتصوراتهم .

ويحسن أن نتذكر ما تردد فى كتب الفلاسفة والفقهاء عن أنواع النفوس وقسمتها إلى : نفوس سماوية علوية ، ونفوس سبعية غضبية ، ونفوس حيوانية شهوانية . ومحاولة تحديد طاقة إدراكية وتطلعات شبه محددة لكل نوع كأنما حكم عليه بألاّ يتجاوزها أو ليس باستطاعته أن يتجاوزها .وهذا ابن الدباغ يشير إلى اختلاف النفوس أو الاستعداد أو « الفطرة » فهناك نفوس متيقظة من ذاتها مقبلة على بارئها ، ونفوس أعرضت بالكلية وغلب عليها حب المحسوسات وشهوات الأجسام فأنكرت اللذات الروحانية والمدارك العقلية ، ونفوس أقبلت على حب المحسوسات اقبالا متوسطا فكان لها نظران . ثم يقول :

« اعلم أن النفس اذا أدركت جمال نفس انسانية مناسبة لها ادراكا عريا من العلل والعوارض يحصل لها من الابتهاج واللذة بجمال ما أدركت ما يزيل عنها كثيرا من حب الشهوات البدنية التى كانت قبل هذا مألوفة لها ، حتى إنها إذا أمعنت فى ذلك تنصرف عن عشق بدنها الذى كانت تحبه وتعشقه بطبعها ، ولهذا نجد العاشق يسلبه عشقه للكمال لذة المطعم والمشرب والنوم ، وهى من الأمور الضرورية للجسم ، بل يحصل للنفس من الطرب والسرور بما هى فيه من اللذة الروحانية ما يشغلها عن الشعور بما فاتها من اللذات الخسيسة ، كما قيل (من البسيط) :

لها أحاديث من ذكراك يشغلها عن الشراب ويلهيها عن الزاد

وعند ذلك تتوجه بوجهها إلى حب اللذات الروحانية ويصير حبها للصفات المعنوية أكمل ، إلى أن تتبرم بما كانت فيه من قبل ، فإنها كانت باعتبار إقبالها على لذة المطعم والمشرب والمنكح وقصر الإدراك عليها بمنزلة البهائم ، بل شر منها ، فإن البهيمة لم يخلق لها استعداد سوى ذلك ، والإنسان خلق مستعدا لنيل الكمال الخاص به »[1] .

وليس هذا الاقتباس ضربة حظ أو بالمصادفة ، فهو لرجل صوفى ، واهتمام الصوفية بالجمال الحسى ، ثم بتجاوزه فى الوقت نفسه ، وبالعشق ، ثم باتخاذه بابا إلى الفناء فى معشوق واحد

(١) مشارق أنوار القلوب ص ١٦ ، ١٧ .

أمر على غاية من الأهمية عندهم ، على أنه ليس من موضوعنا ، أما ما هو منه ، فهو ما سنجد من محاولات تفسير اختلاف الطبائع تجاه العلاقة الواحدة ، ونعنى العلاقة بين الرجل والمرأة ، ولماذا تختلف ، بل هناك من ينكر أنها تختلف من الأساس ، ويرى أن تقسيم المحبين إلى عذريين وحسيين قائم على توهم وزيف ، ويعتمد على ضروب من التأويل الخاص للأخبار المأثورة . وقد يحق لنا أن نلاحظ فيما اقتبسنا من ابن الدباغ الحرية والتوسع فى ترديد كلمة « اللذة » التى توصف بها المتناقضات ، والتى تلاحق أنواع النفوس على اختلافها ، وهذه ايماءة أخرى تشير إلى البؤرة الواحدة التى تنطلق منها رغبات الإنسان ، ويبقى الفارق قائما فى أسلوب التعبير عن تلك الرغبات .

ومبدئيا فقد أقر الفكر العربى مبدأ مستويات النفوس ، أو الاختلاف الفطرى ، أو الفروق فى الاستعداد الطبيعى ، ولكنه أشار إشارة غامضة إلى عدم جمود هذا المبدأ ، وقبول النفس الواحدة للترقى من منزلة إلى منزلة أعلى ، بل تعرضها أيضا للهبوط والتدنى عن منزلتها التى بلغتها بجهادها السابق ، أو هو على أقل تقدير قال بالنفس المتسامية أبدا ، وبالنفس المتدنية أبدا ، وبالنفس ذات المستويات المتعددة ، وفيها يكون الجهاد الأكبر ، وأحسب أننا إذا استقرأنا تنظيرات القدماء سنكتشف أن الأوصاف على التقريب والتشبيه ، وأن النفس المقبلة على المحسوسات إقبالا متوسطا ، تلك التى وصفت بأن لها نظرين هى النفس الإنسانية فى مستواها المألوف العادى ، الذى قد يرقى إلى إدراك المجردات والكليات المطلقة ، وقد يهبط إلى الوقوف عندما يدرك بالحسّ وينكر ما سواه .

ومهما يكن من أمر فإننا نجد من الضرورى أن نشير هنا إلى أن القول بأنواع النفوس يتضمن تدخلا مبطنا فى إطلاق الماهية ،فإذا كانت طبيعة الشىء ماثلة فى حقيقته ، فإننا هنا ازاء ثلاثة طبائع متباعدة تقريبا ، وهو ما أثبت الاستقراء والتحليل النفسى عدم دقته . والأمر الأقرب إلى قبول التفسير العلمى هو ما سبقت الإشارة إليه أيضا من اختلاف العناصر أو الأمزجة ، فهناك الصفراوى، والسوداوى والدموى والبلغمى ، ولكل نوع طباعة ، أو لنقل بلغة عصرنا ، تركيبه العضوى والعصبى أيضا ، ولنقل ترتيبا على ذلك : وله استجاباته العاطفية وطريقته فى الحب ومقدرته أو عجزه عن السلو أيضا . ولعلنا نذكر ما سبق أن اقتبسناه عن داود الانطاكى – وهو طبيب – وقد جعل العشق تابعا للأمزجة ، ومن ثم فالعشاق فى رأيه على أربعة أنواع : نوع سريع التعلق سريع السلو وهو النوع الصفراوى ، وعكسه السوداوى ، لا يعرف الحب من أول نظرة ، ويتروى ويطيل التفكر ، ولكنه حين يحب لا يتخلى عن محبوبه ما بقيت له حياة . وهناك النوع الدموى وهو سريع الوقوع فى شرك الحب لكنه ليس سريع التخلى عن حبه ، بل يجد صعوبة فى السلو ، وعكسه البلغمى ، الذى لا يعرف الحب

من أول نظرة ، لكنه يعرف حب غيره (أو تعرف هى حب غيره) حين يواجه الهجر مرة !!

هذه أهم اجتهادات القدماء فى تفسير السلوك الإنسانى ، ونضع فى اعتبارنا أن « المشاكلة » ليست تفسيرا لمستوى السلوك ، بل هى تفسير لحال الخصوصية الذى يستشعره شخص تجاه آخر ، دون غيره أو أكثر من غيره ، ولسنا على ثقة من أن هذا القدر يكفى لتفسير ظاهرة تقسيم المحبين والعشاق إلى حسيين وعذريين ، وتقسيم شعراء الغزل من ثم إلى القسمين نفسيهما ، وان يكن العرف الأدبى قد فصل الأمر إلى ما هو أكثر ، فأشار إلى الغزل العفيف أو العذرى ، وحدد رواده من أمثال جميل بن معمر وقيس بن ذريح وقيس بن الملوح ، والغزل فى محبوبة واحدة ويرود هذا الاتجاه من عاشوا حياتهم فى إطار تلك العاطفة المحددة ،مثل العباس بن الأحنف وصاحبته فوز ، وابن أبى عيينه وصاحبته دنيا ، وقد يكون بعضهم مدعيا يتشبه مثل اشتهار أبى العتاهية بعتبة ، وأبى نواس بجنان ، وهناك الغزل الشاذ ، الذى توسع فيه أبو نواس وغيره ، والغزل التقليدى الذى يتصدر الكثير من القصائد دون أن يدل على عاطفة معينة أو يصدر عن حب حقيقى . ومع الاقرار بأن هذا التشعيب قد يكون أكثر قربا من تصوير حالات الحب ، فإنه يبقى أسير المقابلة بين العذرى والحسى ، والانحصار فيهما . والخلاصة أننا لسنا على اطمئنان كاف على صحة الوقوف عند هذين اللفظين المتقابلين : الحسية والعذرية ، أو ما يقابلهما من ألفاظ أخرى ، ونرى أن تجربة الحب بين البشر ، ولا نقول بين الرجل والمرأة وحسب ، تنطوى على طقوس ومشاعر وصور وأفكار وغرائز يمتزج فيها الفطرى بالمكتسب والآنى بالقديم وغريزة البقاء برغبة التدمير ، فإذا ما تشكلت فى عمل فنى شعرى ، لعبت اللغة والايقاعات الصوتية دورا تجسيديا ، وانضاف الموروث الفنى لهذه الجوانب المستكنة جميعا ، ومن ثم يصير تقسيم المحبين إلى حسيين وعذريين ، أو تقسيم الحب إلى حب حسى وحب عفيف ، أمرا فيه قدر من التسرع ، وتجاهل الفروق والتداخلات المشاهدة ، فقد ينطوى الضد على الضد أو يلتقى معه تماما فى النتيجة النهائية كما أسلفنا . والإشارة إلى الشعر هنا مقصودة لنا ، وخلاصة ما نريده أن الاعتماد على الشعر وحده لاستكشاف الرؤية العربية أو النظرية العربية فى الحب قد يؤدى إلى أخطاء وتعميمات لا تصح إذا قيست إلى الواقع الاجتماعى أو قيس إليها هذا الواقع ، فالشعر ، والتعبير الفنى نسبيا وبوجه عام ، يعبر عن مشاعر ولحظات نفسية ، ويصور تجارب سلوكية أكثر مما يعبر عن واقع مباشر أو واقع قابل للتعميم ، ولهذا قل اعتمادنا على تجارب الشعراء ، كما أفردنا القصص بفصل خاص حتى لا تضفى على النظرية ما ليس من جوهرها ، وانها لفتة مفيدة تلك التى حرص عليها ابن النديم فى تصنيف فهرسته ، فإنه يقدم ثبتا طويلا بأسماء العشاق الذين عشقوا فى الجاهلية والإسلام وألف فى أخبارهم ، ثم أسماء العشاق من سائر الناس ، ثم أسماء الحبائب المتظرفات ، ثم أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم فى السمر ، ثم أسماء عشاق الانس للجن وعشاق الجن

للإنس[1] ، فإن صياغته لهذه القوائم تسقها كلمة « كتاب » ، فهو يعرف أنه يشير إلى كتاب فى الموضوع ، وليس إلى الموضوع ذاته ، الذى لا يمكن قبول تقسيمه بهذه الطريقة ، وإذن فإن أصناف المحبين وأنواع علاقات هذه العاطفة تتجاوز دون ريب هذا الحسم الساذج القائم على الفصل بين الحسية والعذرية ، وينبغى أن نؤمن مبدئيًا أن عواطف الإنسان من التداخل والتعقيد بدرجة تستعصى على هذه القسمة .

العذرية : آراء المستشرقين فى نشأتها :

وبنو عذرة حقيقة تاريخية ، واشتهارهم بنوع من العشق أو برقة الشعور لا يعنى أنه وقف عليهم ، فقد نسب إلى العذرية من ليس منهم ، وفى أوصاف قيس – مجنون ليلى – من رهافة الشعور ما جعل بعض الرواة ينكر أن يكون قتيل العشق من بنى عامر ، وألحق صفاته العاطفية بأهل اليمن ، أما نزار – حسب تصوره – فإنها لا تملك هذه الرهافة . وقد يصعب علينا الآن الاقتناع بأن قبيلة ما كانت تتميز بصفات أخلاقية أو شعورية متوارثة ، لتقارب الأنساب والبيئات والنشاط العملى ، ومرد هذا القلق ناجم من قياسنا للتجمعات البشرية السائدة فى زماننا على الأوضاع السكانية القديمة ، والحق أن بعض القبائل كانت بمثابة دولة صغيرة ، تكوينا واستقلالا بالمكان وتعدادا ، فليس ثمة ما يمنع أن تتميز بصفات أخلاقية وشعورية عن غيرها ، ولكن عذرة بالذات لا تطيق هذا التميز دون غيرها ، فليس لها دور خطير يتجاوز هذا الملمح العاطفى . والفطرة الإنسانية الطبيعية لا تنحاز إلى أحد الضدين ، وإنما يتم الانحياز تحت دوافع مؤثرة من نظم الجماعة وعقائدها وفكرها ومراحل قوتها وضعفها . ويحاول الأستاذ العقاد أن يفسر اجتماع الضدين فى ظلال البداوة والفطرة فى العصر الواحد فيقول : « وإذا نظرنا إلى المرأة من حيث هى عرض الرجل الذى يحميه ويغار عليه فلا جرم يصبح اللفظ باسم المرأة إهانة لها وإهانة للرجل الذى يحميها فى وقت واحد ، ويبلغ من ذلك أن يحرم على الفتاة الزواج بالفتى الذى اشتهر بحبها ونظم الشعر فيها . هذا هو عرف الفطرة الذى توحيه البداوة والبداهة . ثم يجىء سلطان الدين فيضيف إلى حصانة البداوة مناعة إلى مناعة ، ويزيد حق أولياء النساء فى حماية أسمائهن والمطالبة بعقاب من يغازلهن ويلفظ بذكرهن ؛ لأن اللفظ بهن ازدراء بأقدار أوليائهن وحرام فى الدين ... لكن الأدب البدوى يدركه أحيانا عرض من أعراض التغيّر أو الانحلال لجدب شديد يحطم قيوده ويهدم حدوده ، أو لترف تنغمس فيه القبيلة فتلين بعد جفاء وتتراخى بعد صلابة ، أو لقلة الحاجة إلى القتال ونخوة العداء التى تجعل المناعة فضيلة الفضائل ومعقد الأخلاق والآداب ، أو لما يحدثه النعيم من حب الدعابة والسخر بالجلافة وإن اشتملت على

(١) الفهرست ص ٣٠٦ – ٣٠٨ .

سطوه وانطوت على اباء . فترى إذن من سهولة الغزل بين الرجل والمرأة ما تستغرب أن تراه فى حاضرة من حواضر العصر الحديث ، لأن المتغزل البدوى قد يستخف بحواجز البداوة وحواجز الحضارة على السواء »[1] وإذ يقتبس العقاد من ترجمة يزيد بن الطثرية من كتاب الأغانى ما يؤكد انطواء العصر الواحد على الضدين ، إذ كان الغزل فى قبيلة جرم جائزًا وفى قبيلة قشير نائرة[2] ، فإنه يرصد جانبا من أهم الجوانب التى تستنبت القيم الأخلاقية والسلوكية وتحافظ على استمرارها ، وهو ما سيكون موضع اجتهادات شتى تتعلق بارتباط العذرية – فى مرحلة ازدهارها الواضح على الأقل – بفترة زمنية محددة ، هى النصف الثانى من القرن الهجرى الأول ، وقد لا يسلم له القول بأن الفطرة تعنى خصوصية العواطف والنزوع إلى الغيرة والحماية ، ومهما كان نصيب هذا القول من الصواب فإنه سيعنى أنه ليس من اليسير تخصيص العفة بعصر ، وإن أمكن القول بتطوير مفهومها وازدهار التغنى بها فى مرحلة معينة . وإذن فليس من الغريب أن نجد أسس العذرية أو الحب العفيف موجودة فى العصر الجاهلى ، بل تذكر المصادر أن عبد الله بن العجلان النهدى والمرقش الأكبر والمرقش الأصغر أشهر الشعراء العشاق فى الجاهلية ، وأنهم ماتوا حبا ، ولحق بهم آخرون فى الإسلام[3] . بل إن القصة التى حملها الرواة شفاها ودونت فى العصر الإسلامى تعكس فيما تعكس عن هذا العصر الجاهلى قيما أخلاقية تتسم بالعفة وترضى بالموت فى سبيل الحب . وقصة « مضاض ومى » التى رواها وهب بن منبه فى « التيجان » تؤكد هذا المنحى[4] .

ومن الحق ما يلاحظه كثير من الدارسين أن الملامح العذرية – فى الشعر – سابقة على العصر الذى ازدهرت فيه وعرف بها ، وقد أشرنا – من جانبنا إلى عشاق عذريين جاهليين ، كما كان عروة وصاحبته عفراء فى زمن الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ، وهو عذرى صفة ونسبا ، إذ ينتسب إلى قبيلة عذرة ، وهو – كما يصفه الأصفهانى – أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى ، ولا يعرف لـه شعر إلاّ فى عفراء بنت عمه . وقد عنى الدكتور عبد القادر القط[5] بما يمكن أن نسميه الجذور الفنية لحركة الشعر العذرى ، ومتى يمكن أن تعتبر استمرارا

---

(١) عمر بن أبى ربيعة ص ٢٨ .

(٢) يعتبرج . ك . فاديه الحادثة المروية دليلا على وجود نوع مخفف من تبادل النساء بين القبيلتين . انظر : الغزل عند العرب جـ ١ ص ٨٤ وليس له أن يستنتج ذلك ، والحادثة لا تزيد عن كونها غمزة هجاء نجد لها أشباها فى نقائض جرير والفرزدق ، دون أن تدل لدى القائل أو جمهور السامعين على مثل هذا السلوك الذى ترفضه القوانين الإسلامية .

(٣) انظر مثلا : منازل الأحباب ومنازه الألباب – مخطوط – ورقة رقم ٤ .

(٤) انظر نص القصة ، وتحليلا جيدا لها فى : فى الرواية العربية ، ص : ٨٧ وما بعدها .

(٥) فى الشعر الإسلامى والأموى : الفصل الخاص بالعذريين .

لتقاليد فنية موروثة ، ومتى يمكن اعتبارها تجديدا يحاول أن يواكب الحياة المتغيرة في العصر الإسلامي ، وسنضرب مثلا شعريا على ذلك بشيء من التفصيل . وخلاصة القول هنا أن بذور العذرية قد تبرعمت أو كادت قبل العصر الإسلامي ، وإن تكن أزهرت في ظل نظامه وعقائدة . والبحث في أسباب الظاهرة هو بحث في خصائصها ، فليس بين الدافع والخاصية من افتراق ، انه تلازم السبب والنتيجة . والطريف حقا أن يميل أكثر المستشرقين إلى تلمس أسباب مبكرة غير إسلامية للعذرية ، في حين يميل الباحثون العرب إلى حصرها في عصرها وبأسبابه الواضحة ، وان اختلفت الأسباب . ونرى أن نلم بأهم الاتجاهات في هذا الجانب .

لعل أول من تعرض لنشأة الحب العذرى المستشرق لوى ماسينيون ، وقد رأى أنه مقتبس من الحب الأفلاطوني عند اليونان ومشتق منه[1] . ويوافق هذا الرأى المستشرق دوزى في دراسته عن ابن حزم ، وقد جعله مثلا استثنائيا نموذجيا للحب الروحي العفيف ، الذى يسميه علماء النفس الحب الأفلاطونى أو الرومانتيكى ، ورأى أن هذا اللون من الحب ليس من خصائص الجنس العربى ولا الأدب الإسلامي ، ولهذا يفسره بالوراثة النفسية التى تعيد ابن حزم إلى جنسه المسيحى الأسبانى . ولسنا بصدد ابن حزم الآن[2] ، ويعنينا هنا زعم دوزى أنّ الجنس العربى لا يعرف إلاّ الحب الحسّى ، وهو ما أنكره عليه مستشرق آخر من مواطنيه هو أسين بلاثيوس ، وبصرف النظر عن الحوار حول هذه النقطة التى تكشف محدودية الدراية لدى كثير من المستشرقين ممن تعرضوا لدراسة الشعر العربى كما تكشف قناعاتهم المسبقة المتحيزة ، فإن القضية الجوهرية هنا هي ما راح يردده بلاثيوس من الزعم بأن بنى عذرة قد تأثروا في نزعتهم العاطفية بالمسيحية . فهل كانت العذرية نتيجة تأثّر بالمسيحية ؟ ونقول مع الدكتور الطاهر مكى في رفض القول بهذا التأثر : ان ربط العفة بالمسيحية والتبذل بالإسلام ينافي الواقع التاريخى كما ينافي المنهج العلمى ، وإذا كان ما زعمه آسين بلاثيوس من أن الحب العذرى نشأ بين بنى عذرة نتيجة تأثير مسيحى له وجه من الصواب ، فينقضه أن بنى عذرة هؤلاء كانوا بدوا ، يأخذون الدين مأخذا سهلا ، وقلما يبلغ من عقولهم ونفوسهم مبلغا قويا يتأثرون به ، ويكيفون حياتهم وفق مثله ، ولو كانت المسيحية وراء هذه الظاهرة لكان الأولى أن تكون على نحو أوضح ، وأسبق في نجران أو الحيرة أو الغساسنة ، حيث استقرت المسيحية زمنا ، وباشرت سلطانها على النفوس ، وأصبحت دين الأسرة الحاكمة ردحا من الزمان[3] .

---

(١) الحب العذرى ص ٤٥ وهامشها

(٢) واعادة ابن حزم إلى دماء مسيحية أمر غير مسلم ، كما أن تصور الوراثة على هذه الشاكلة لا يخلو من تسرع ، هذا فضلا عن أن تأثير الموروث الثقافى أقوى من أية خصائص جنسية مزعومة .

(٣) دراسات عن ابن حزم ص ١٨٥ - ١٩٩ .

وسنحاول – لبعض الوقت – أن نغادر حجج التاريخ والاستنتاج العقلى ، إلى محاولة تطبيقية ، نسبر عمقها الروحى واتجاهها الشعورى ، ونرى إلى أين تتجه جذورها ، وفى أى تراث تضرب ، ومع اقتناعنا بوجود اختلاف لا يمكن تجاهله أو تأويله بين نماذج الشعر ذى الملامح العذرية المبكرة ، والنزعة الإنسانية المسيحية ، فإننا – بوجه عام – نريد أن ننبه إلى أنه حين تتشابه الظواهر أو تشترك فى بعض الملامح فإن التداعى بينها يبدو أمرا طبيعيا ، كما أن اكتشاف رابطة ما يصبح شيئا مقبولا بل مطلوبا ، ولكن هذا لا يعنى حتمية وجود هذه الرابطة ، فقد تتفق النتيجة أو تتقارب النتائج مع اختلاف الأسباب . وإذا كان تأثر الظاهرة العذرية بالمسيحية يجد ردا فى نوعية القبائل التى ظهرت فيها العذرية وانتشرت ، من حيث ديانتها وموقعها وزمن ظهورها ، فإن هذه المعالم الفارقة بذاتها تصلح ردا على من زعم وجود أثر أفلاطونى فى هذا الطابع الرومانسى الواضح فى قصص الحب العذرى وأشعار العذريين . وكما رأينا فإن الملامح العذرية واضحة حتى فى العصر الجاهلى ، وحين ازدهرت فى العصر الأموى فإن أفلاطون لم يكن قد ظهر عند العرب بعد ، وعلى افتراض تسلّله عبر كلمات أو أفكار ، فإننا نحتاج إلى تفسير يوضح كيفية وصوله إلى بادية الحجاز فى وقت عجز فيه أن يظهر فى أدب تلك الحواضر التى يسند إليها دور الوساطة والقيام بترجمته .

ولعل هذا النموذج الشعرى التطبيقى يحسم الزعم من أساسه ، وهو لشاعر جاهلى ، هو جعفر بن علبة الحارثى ، وقد سقط أسيرا وأودع السجن ووضع فى القيود ، ولكنه فى عزلته يصنع عالما خاصا به ، فيلقى محبوبته لقاء خاطفا ، تلعب فيه الرؤى الحميمة والعواطف المشبوبة العفيفة دورا أساسيا فى اعتبار المحبوبة رمز خلاصه من سجنه وأداة مقاومته لأعدائه ؛ وفى هذا النموذج لا يغيب الواقع تماما ، فالشاعر يدرك أنه سجين بمكة ، وأن محبوبته قد رحلت مع القافلة فى طريقها إلى اليمن ، ولكنه يعرف أن القيد يشل إرادة الجثمان فقط ، وتبقى حرية الروح وقدرة الحلول بالخيال طليقة لا تمس :

هـواى مع الركب اليمانين مصعـد ... جنيب ، وجثمانى بمكـة موثق
عجبت لمسراها ، وأنى تخلصت ... إلىّ ، وباب السجن دونى مغلق
ألمت فحيت ـ ثم قامت فودعت ... فلما تولت كادت النفس تزهق
فلا تحسبى أنى تخشعت بعدكم ... لشىء ، ولا أنى من الموت أفرق
ولا أن نفسى يزدهيها وعيدهم ... ولا أننى بالمشى فى القيد أخرق
ولكن عرتنى من هـواك ضمانة ... كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلـق

ويرى الدكتور محمد غنيمى هلال أن طبيعة الشاعر الفارس هى مصدر هذا الشعر ، الذى يعبر عن روح الفروسية العربية ، حيث يتجاور الجلد والحمية مع الرقة والدماثة والخضوع

لسلطان العاطفة ،وهذان الجانبان لا يتناقضان بل يتكاملان ، وهذا الشعر الفروسى تفسره – فى رأيه – البيئة العربية طبيعة ومجتمعا[1] .

هل يعنى هذا أننا ننفى وجود أثر أفلاطونى ؟ كلا . وقد أشرنا إلى هذه النقطة من قبل ، بل أشرنا إلى أثر أفلاطونى وآخر أفلوطينى ، ولكنه لم يكن أثرا يحدد مسار العواطف أو يضيف إلى مفهومها عند العشاق والمحبين ، بل أضاف – وهذا ما نريده تماما – إلى مفاهيم الدارسين ووعى المتأملين فى كنه هذه العاطفة ، فالحب البغدادى الذى نجد ملامحه فى كتابات ابن داود وبعض من جاء بعده كان تعبيرا عن منهج فكرى فى فهم هذه العاطفة وتوجيهها أكثر مما كان استنتاجا من واقع حياتى مباشر عبرت عنه الأشعار والقصص والأخبار ، هى وحدها المصادر الأمينة فى رسم حدود الحب عبر العصور العربية .وإذا كان الفيلسوفان اليونانيان قد أخذا مكانا واضحا فى تأملات بعض الصوفية ورؤاهم ، فإننا قد اعتبرنا الحب الصوفى نوعا خاصا ليس هو الذى نعنى به ، وإن أثر فيه بعض التأثير ، كما تأثر به بعض التأثر أيضا ، بل إننا نزعم أن الحب الصوفى متأثر بالحب البشرى أكثر منه مؤثرا فيه .

على أنه قد يسبق إلى بعض الظنون أن لبعض العقائد الفارسية تأثيرا فى نشأة الحب العذرى وتشكيل سير عشاقه على الشاكلة المأثورة عنهم ، وقد تعزز الجيرة والمخالطة النسبية مثل هذا الظن ، وقد امتد نفوذ فارس فى العصر الجاهلى إلى اليمن وشاطىء الخليج الشرقى ، وتجاوز النفوذ التأثير السياسى إلى الاستيطان فى بعض المراحل ، والخلاصة أنه لا عجب فى القول بهذا التأثير ، ومع ذلك فإننا لا نسلم به ، لأنه – على افتراض وجوده – قد انتهى إلى الثقافة العربية عبر وسائط واضافات قد غيرت الكثير من استقلاليته وفلسفته . من الصحيح أن الزرادشتية – وهى أقدم الديانات الفارسية – قد حثت على الطهر والعفة ، وآمنت بصراع الخير والشر ، أو النور والظلام وغلبة النور على الظلام فى النهاية ، ولكنها تعرضت لانحرافين خطيرين قطعا طريق تأصلها ، يمثل أولهما المانوية فى دعوتها المعطلة للحياة ، الداعية إلى هزيمة الشر بهدم الحياة بخيرها وشرها ، وحتى تستجد حياة جديدة بدون شيطان ، وقد استلزمت تلك الدعوة أن يمتنع الناس عن التزاوج لينقطع النسل بعد جيل أو جيلين وتتوقف الحياة ، وهكذا وقفت ضد الزواج صراحة . وتمثل المزدكية الانحراف الثانى وقد وقفت ضد الزواج أيضا ، ولكن من الطريق المعاكس وهو الدعوة إلى الشيوعية الجنسية . بعد هذه الخلاصة لا نرى غير المانوية التى دعت إلى رفض الزواج لأنه يؤدى إلى استمرار الشر ، فهل نستطيع أن نستعيد سير وأشعار العذريين لنكتشف هذا المعنى مختبئا فى اضمارهم اليأس من نوال محبوباتهم ، واستمرائهم لما يعانون من حرمان ،واعتبارهم هذا الحرمان نوعا من التطهرية وطريقا إلى صهر الروح والسمو

(١) النقد الأدبى الحديث ص ١٩٠ – ١٩٢ .

بها عن شرور المادة وعواصف الشهوات الشيطانية ؟ وهل يمكن إعادة هذا التوافق الظاهرى إلى نوع من التأثر بالمانوية ، مع أن الإسلام – الذى لم يزهد فى الزواج والنسل – قد انتهى إلى الدعوة إلى التطهر والعفة وضرب على ذلك الأمثال وسرد القصص ؟ وانه لجدير بتأملنا أن نكتشف هذا الفارق بين عذريى الإسلام وعذريى الجاهلية ، ففى سير المحبين الجاهليين نجد اليأس وروح الاحباط ، فى حين أن المحبين الإسلاميين يغلب عليهم التعزّى بما عند الله باحتساب عذابهم المقرون بالطهر والتسامى الأخلاقى .

أما القصص الفارسية الشهيرة قديما والتى يقوم فيها العشق بدور مؤثر فأهمها قصة كيكاوس ، وهو ملك فارسى عاش فى القرن السابع قبل الميلاد ، وقد تزوج من سعدى أو سوزانة ابنة ملك حمير ، ثم تزوج بعدها من جارية جميلة ما لبثت أن أنجبت له ولدا جميلا هو سياوش ، الذى عشقته زوج أبيه ، فلم يلتفت إليها ، فراحت تحتال لابقائه قريبا منها حتى زوجته من ابنتها ، ولكن الفتى الجميل رفض كل المغريات لخيانة أبيه فى زوجته ، فاغتاظت إذ كانت قد عرضت نفسها عليه ، ومن ثم سبقت إلى اتهامه عند أبيه ، فأنكر الفتى ، كما أنكر يوسف من قبل أن يكون الداعى إلى الخطيئة ، وقد تحقق الملك من كذب زوجته بأن شم يدى ابنه فلم يجد فيهما أثرا لعطرها ، وأراد قتلها فشفع لها الابن الضحية ، فاكتفى الملك بنفيها ، غير أنها حاولت أن توقع الفتى فى براثن أبيه بطريقة أخرى ففشلت ، وانتهى الأمر بالشاب أن هجر أباه الملك وسالم عدوه وعاش فى رعايته وتزوج من ابنته ، فما كان من هذا العدو إلا أن سكن حتى اطمأن الفتى ، فانتهز الفرصة ، ولم يكن نسى العداء القديم ، فقتله .

وهناك قصة أخرى بطلتها ابنة أردوان الخامس ملك اشكانى بارثى ، التى ساعدت أردشير بن بابك مؤسس الأسرة الساسانية على الفرار من قهر أبيها ، وبذلك حاربه وانتصر عليه وأسس دولته وتزوج الفتاة التى أعانته على الهرب ، غير أنه بعد أن تحقق له الاستقرار فكر فى قتلها تحسبا لأن تخونه كما خانت أباها من قبل ، فتدخل موبد الموابذة (رئيس الكهنة فى عبادة النار) ليقوم بتخليص الملك منها ، وإذ يكتشف أنها حامل فإنه يبقى عليها بعيدًا عن الأنظار ... إلخ . أما قصة الضيزن والساطرون والنضيرة فإنها تحكى قصة حرب سابور – التى عرفناها من قبل – مع ملك السريانية ، وكيف خانت ابنة الملك – وهنا تسمى النضيرة – أباها ودلت عدوه على موضع الخلل فى دفاع المدينة المحاصرة ، واشترطت زواجها ثمنا ، فتزوجها الملك بعد أن تم له النصر ، ثم أنه وجد فى يدها جرحا عرف أنه من ورقة آس ، وعرف أن جسدها المترف ثمرة للطعام الرهيف النادر الذى كان أبوها يغذوها به . وهنا قرر سابور قتلها ، كما قرر أردشير فى القصة السابقة ، ولنفس الأسباب ، ولكنه فى هذه القصة قتلها بطريقة شنيعة ، لا نظن أن من تجرحها ورقة آس كانت – لكى تموت – بحاجة إليها .

وآخر قصص العشق الشهيرة فى الأدب الفارسى ، وأكثرها ذيوعا قصة خسرو وشيرين ، فقد تزوج خسرو أبرويزشيرين الجميلة رغم سوء منبتها وتخوف خاصته من أن تلد له من لا يليق بحكم البلاد من بعده ، وقد جعل من شيرين سيدة نسائه ، بمن فيهن مريم ابنة القيصر ، ووالدة قباد ولى عهده . وتنجب شيرين ولدا هو مردانشاه ، وهنا يتحرك قباد الذى تنبأ المنجمون بشرّه على أبيه وعلى المملكة ، وبالفعل يتآمر على قتل أبيه ، ثم يقتل قاتله ، ويقتل جميع اخوته حتى أوشك النسل الساسانى أن ينقرض . وحينئذ يظهر طمعه فى شيرين – زوج أبيه (وهو عكس ما حدث فى القصة الأولى إذ طمعت زوج الأب فى ابن زوجها من ضرتها) فيطلبها للزواج . وتوافق شيرين بشرط أن يعيد إليها أموالها ، وأن يسمح لها بزيارة ناووس (قبر) زوجها . ويوافق قباد على الشرطين ، وحين تصير شيرين وحيدة مع قبر زوجها ، تلصق وجهها بالقبر ، وتمتص السم من خاتمها ، وتجود بأنفاسها فى عناق حميم للقبر . ولا يكون أمام قباد إلاّ أن يتركها على وضعها ويغلق عليهما باب الناووس !![1] .

هذه أهم حكايات الحب الفارسية التى تروى على أنها تاريخ ، وطابع التأليف والإضافة فيها واضح ، وحبكتها فنية فى الأغلب ، ولا يحول ذلك دون حدوث ما تطيقه الظروف منها . وهذه القصص التاريخية ليست عن ملوك عاشوا قبل الإسلام فحسب ، بل إنها كانت معروفة قبل الإسلام أيضا . وهى تمثل الطابع الغالب للقصص الفارسية . ولعلها مفارقة طريفة أن نحاول اثبات عدم تأثيرها فى نشأة الحب العذرى أو التأثير فى فكرته مع أنها هى نفسها بمعزل عن العقائد الفارسية ، وعلى افتراض تسللها إلى البيئة الحجازية عبر اليمن أو مناطق شرقى الجزيرة ، فإن طابعها التآمرى الدموى ينفى عنها أن تكون مصدرا مؤثرا بأى درجة من التأثير فى نشأة الحب العذرى أو توجيهه . أن عفة سياوش فى القصة الأولى ، وتمنعه عن عشق زوج أبيه ، ذات صلة بمأساة فيدر الاغريقية التى أبدعها يوريبيدوس وغيره من الشعراء القدماء ، وكان افتى هيبوليت هو المعشوق الذى يرفض خيانة أبيه فيلقى حتفه ، والقصة الفارسية أكثر امتدادا وتعقيدا بما يوحى بأنها قد تكون الأصل ، وأن المأساة الاغريقية اجتزئت منها لتأكيد الجانب القدرى ، وهو مؤكد فى نهاية القصة الفارسية ، حيث قتل الفتى بسيف عدوه ، بعد أن صار له محبا ، وآثره على أهل بيته ، الذين لم يكونوا أقل شرا . وتفسح الخيانة لنفسها مكانا فى القصتين الثانية والثالثة بدرجة تقطع بعزلتها عن أى ايحاء عفيف أو أمين . أما قصة خسرو وشيرين ، فإنها عن وضيعة المنبت التى رفعها الحب واستشهدت فى سبيله ، ولعلها الأكثر شهرة لدى العرب إذا أمكن قياس ماضيها على المعرفة بها فى العصور التالية ، ومع هذا فإنها ليست قصة حب عذرى بالإطار الذى عرف به هذا

---

(١) انظر عن هذه القصص : ٣٥٠٠ عام من عمر إيران ص ٩٤ وما بعدها . ص ١٠٥ وما بعدها .

الحب عند العرب ، وإنما هى قصة وفاء ليس أكثر ، والوفاء للمحبوب بعض غايات الحب العذرى وليس كل هذه الغايات .

وأخيرا فإننا نتوقف عند التأثير الفلسفى ، الذى قلنا بعدم وضوحه على افتراض وجوده ، إذ وصلنا عن طريق وسائط واضافات غيرت من طبيعته .

ونجد إشارة خاطفة عند دينيس دى روجمون تقول بأن هناك أصولا إيرانية وأورفية للأفلاطونية أكيدة الوجود ، وان كانت لا تزال تفتقر إلى البحث ، وأن هذه الأصول عبرت إلى عالم العصور الوسطى من خلال أفلوطين[1] . وإذا حاولنا أن نستشف هذا الأثر الشرقى -- ولا نقول الإيرانى وحسب - سنجده فى النزعة التصوفية فى النظر إلى الحقيقة ، وإلى العالم ، إذ ينتهى أفلاطون إلى القول بعالم آخر غير عالمنا المكون من أشياء حسية ، وهذا العالم الآخر هو الكامل الخالد ، وهو عالم لا يرى ، بل يدرك بالفهم ، فهو يرى بالعقل إن صح التعبير . وقد نلمس صداما بين القول بالجمال العقلى المطلق فى عالم المثل ، والنزوع الصوفى الذى يطرح العقل أو يميل إلى التهوين من سيطرته على الإدراك . على أن الموسوعة الفلسفية تشير إلى بعض مقولات الأفلاطونية الجديدة التى تضاف عادة إلى أفلاطون ،وهى فى الحق مزيج من الفكر الفلسفى الذى يجمع الرواقيين والفيثاغورسيين إلى أفلاطون ، ولا يسقط من أولئك السابقين سوى الأبيقوريين ، والسبب واضح بالطبع ، إذ تقف الأبيقورية نقيضا لهؤلاء جميعا فى نزعتها الحسية ونظرتها الآنية وعبادتها للذة ، أما هذه الأفلاطونية الجديدة فإنها تعتبر الإله المفارق منبعا تفيض عنه الأشياء جميعا ، وتراه مستبطنا - مع ذلك -فى كل شىء ، كما كانت الأفلاطونية الجديدة على وعى متيقظ بحالة الإنسان المشوبة بالنقص ، وهذا النقص إنما ينشأ على وجه الدقة عن ابتعاد الإنسان - أو روحه - عن الألوهية ، وهكذا يولّد الفيض - وإن يكن ضروريا - الشوق إلى الارتداد ، أو العودة ، وبذلك يعتبر السير إلى الأمام ضربا من النقص أو هو السقوط . وهذا الشوق إلى العودة ليس خاصا بالإنسان بل تشترك فيه كل الأشياء[2]

لقد سبق أن تلمسنا أثر الأفلاطونية الجديدة - ماثلة فى رائدها أفلوطين - فى دراسات الحب عند العرب ، ورأينا أن هذا الأثر يتضح فى التصوف أكثر مما يتضح فى تلك الدراسات ، أما القول بالفيض ، ومقابلته بالميل إلى الارتداد إلى منبع الفيض ، واعتبار الاستمرار ضربا من النقص أو السقوط ، فهو تفسير نفسى أكثر منه فلسفى ، ولعله يذكرنا بنظرة فرويد للغرائز الإنسانية ، وقد أجملها فى غريزتين هما : غريزة الجنس أو الرغبة ، وغريزة الموت . وتهدف

---

(١) الحب والغرب ص ٧٣ .

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٤٧ - ٥٤ .

الأولى إلى بقاء النوع ، وتهدف الثانية إلى الفناء ، ومن جرائها يسعى الإنسان إلى الهرب بمحاولة إعادة الحياة . وإذا كانت نظرية فرويد قد لقيت كل ما تلقاه النظريات الشمولية المسرفة فى التبسيط من رفض وتحفظ ، فإننا نرى أن هذا القول ينسحب على القول بالفيض والارتداد ، الذى لم يكن له أن يؤثر بعمق خارج نطاق المقلدين من الفلاسفة .

وقد اهتم ج . ك . فاديه باشارة دينيس دى روجمون ، ورأى أن القول بوجود أصول إيرانية للأفلاطونية يفتقر إلى الدليل ، ولكنه أشار إلى ما يحتمل من وجود صلة بين المانوية والعذرية ، اللتين – كما يقول – ظهرتا جنبا إلى جنب مرتين ، وفى حضارتين تأثرت إحداهما بالأخرى سواء من الناحية الدينية أو الأدبية ، ويتساءل : هل استطاعت المانوية مزاولة تأثيرها بوصفها دينا أم بوصفها تمردا على الإيمان الرسمى ؟ ويترك فاديه هذا التساؤل معلقا ، ثم يقرر أنه ليست هناك نصوص مانوية تمجد العشق ، وهذا بالرغم من تيار الأفلاطونية والأفلاطونية الجديدة القوى الذى انصب فى هذه الديانة ، وينبه إلى الرابطة القوية بين شعر الغزل والإلحاد أو الزندقة ، حيث يضعف أو يختفى الاعتراف بالمحرمات الأخلاقية والعلم الإلهى الإسلامى[1] ، وإذا كانت هذه حدود الرابطة فإنها ستستدعى نوعا أو أنواعا من الغزل ، ليس الغزل العذرى من بينها ، فاطاره الأخلاقى أوضح من أن نذكر به . ولا تفوتنا إشارة فادية المعاكسة لإشارة دى روجمون ، إذ يرى تأثر العقائد الفارسية القديمة بالفلسفة الأفلاطونية وليس العكس ، ولعله يشير بذلك إلى حادثة تاريخية معروفة ، ففى عهد كسرى أنوشروان – أى فى القرن السادس الميلادى – فر سبعة من الفلاسفة الإغريق إلى فارس ، هربا من قيصر الروم جاستنيان ، وقد احتفى بهم كسرى ، وضمهم إلى مدرسة جنديسابور ليواصلوا بحوثهم الفلسفية ، وكثيرا ما كان الملك الفارسى يجالسهم ويناقشهم ، وقد بسط حمايته عليهم حتى لقد شرط فى معاهدته مع الروم حين انتصر عليهم منح هؤلاء الفلاسفة حق العودة أو الإقامة مع ضمان حريتهم العلمية إذا اختاروا العودة . وتقول المصادر انه عن طريق هؤلاء الفلاسفة السبعة انتشرت الفلسفة فى إيران ، وبخاصة الفلسفة الصوفية والأفلاطونية الحديثة ، كما تسللت هذه الأخيرة إلى الديانة الزرادشتية . بل تذكر بعض هذه المصادر أن جانبا مما انتهى إلى العرب عن الأفلاطونية والتصوف إنما كان بواسطة هذا التأثر الفارسى السابق زمنيا [2] .

ولعل هذا الرأى الأخير يرجح الرأى الآخر ، إذ يستند إلى واقعة تاريخية محددة ، ويعطينا الحق فى إعادة رصد مسار الاتجاه الصوفى والنزعة الإشراقية . وبشكل حاسم فإنه ينهى الشك حول الظاهرة العذرية ، التى لم تكن إلاّ عربية خالصة ، أو عربية إسلامية ان شئنا المزيد من التدقيق .

---

(١) الغزل عند العرب : هامش ص ٣١٥ ، ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٢) ٣٥٠٠ عام من عمر إيران ص ١٨٩ .

العذرية : آراء العرب المعاصرين فى نشأتها :

لقد أثبت الطواف بدراسات قدامى الباحثين فى الحب من العرب أنهم ميزوا أكثر من لون من ألوان الحب ، فلم يخلطوا بين محب ليس عاهر الخلوة ولا سريع السلوة ، وبين غيره من أصحاب التنقل السريع بحثا عن اللذة أو الشهرة ، أو أدعياء العشق ، وكذلك ميزوا أشعارهم كما ميزوا أخبارهم ، وقاربوا بين الأشباه ، فكلما ذكروا عاشقا من الصادقين اتبعوه بمن سار على نهجه وتأسى به فى سيرته أو فى شعره . ولكنهم لم يحاولوا تعليل الظاهرة أو الظواهر اكتفاء بالوصف ، ولو أن قلق المعرفة تسلل إلى نفوسهم لأخذت الأخبار المجموعة اتجاها آخر ، ولاشك أن هؤلاء القدماء كانت لهم قناعاتهم الجاهزة التى لا يرون ضرورة للدفاع عنها ، وهذا الاتجاه العام الذى يهتم بالتسجيل والوصف ، دون التحليل والاستنتاج يلقى على الباحث المعاصر عبئا كبيرا ، وسيكون الباحث العربى فى هذا المجال مندوبا لاكتشاف جذور العذرية وتحديد دوافعها وملامحها ، ليس من باب أنه يعيش فى أجواء ورثتها ويحمل نزعتهم العقلية والعاطفية فحسب ، وليس من قبيل أنه الأكثر قربا وملامسة لتقاليد التعامل بين الجماعة فيما يخص علاقات الحب والزواج ، تلك العلاقات التى لا تزال – فى مناطق عربية كثيرة – محملة بعبق الماضى أيضا . وإنما لأنه –بالإضافة إلى كل ما سلف – يملك الدراية الراسخة بأدب لغته فى عصوره المختلفة ، ولأنه يحفظ القرآن أو يستطيع أن يقرأه بيسر فلا تلتبس عليه مراميه ، ومن ثم يستطيع أن يربط بين الظواهر ، كما يستطيع أن يلمح الارهاصات المبكرة ، والتغيرات الناشئة . ولا شك أن جانب التغير الذى يوشك أن يأخذ شكل الطفرة واضح فى العصر الأموى ، مهما قلنا بوجود خمائر سابقة ، ومن ثم فإنه من الطبيعى أن تشغل الظاهرة العذرية الباحثين العرب المعاصرين ، وقد استأثرت الظاهرة بالنقاد ودارسى الأدب دون غيرهم ، ولهذا استأثر الشعر بجهودهم ، واعتبر بمثابة وثيقة نافذة القول . وهناك اجماع بينهم على إهمال البحث فى احتمال وجود تأثير حضارى أو فلسفى أو فنى وافد . العذرية عندهم جميعا ظاهرة عربية خالصة ، تولدت بفعل الجغرافيا والتاريخ وحدهما . وأول من حاول تعليل الظاهرة بذلك الدكتور طه حسين[1] ، الذى تلمس أسبابها فى عزلة الحجاز السياسية ابان العصر الأموى وما تؤدى إليه العزلة من يأس ، وما صاحب هذه العزلة من اغراق مدن الحجاز فى الثروات ، وبذلك كانت مهدا للغزل اللاهى ومرتعا للغناء والمغنين ، وما صاحبها فى البادية من فقر أدى إلى ما يشبه الزهد ، زكّاه شعور دينى يحول بينهم وبين العودة إلى أخلاق الجاهلية ، فكان غزلهم العفيف هذا تعبيرا عن المثل الأعلى فى الحب ، ذلك المثل الذى استعلى على كل ما ينقص

(١) فى كتابه : حديث الأربعاء جـ ١ ص ١٨٨ وما بعدها .

المروءة . وتأتى دراسة الدكتور أحمد عبد الستار الجوارى تالية فى الموضوع[1] ، وهو يجعل كتابه قسمة بين الذين عاشوا تجربة الحب العذرى وأبدعوا فيه شعرا ، والذين ألفوا عنه ، ولا يفوته أن يذكر أن العذرية بدأت بالشعراء ، بدءا بعروة بن حزام ، وتطورت بالفقهاء ، كعبد الله بن عتبة وعبد الرحمن القس ، وهو يصفها بأنها ظاهرة اجتماعية جديدة ، وأنها وليدة التطور الاجتماعى الذى أحدثه الإسلام فى الحياة العربية ، فى البادية بخاصة ، بل يحدد بدايتها ببنى عذرة ، حتى وإن أرهصت الجاهلية ببعض ملامحها . وإذ يعود فيصف الحب العذرى بأنه « فكرة شعرية » ، فى مقابل الحب الأفلاطونى الصادر عن « فكرة فلسفية » فإنه لا يرعى هذا الجانب فى تصويره لنشأة الظاهرة ، مع صلاحيته لاحتوائها إلى حد بعيد . على أنه يفيد من تعليل طه حسين ويتحفظ فى قبول بعضه ، فلا يوافقه فى القول بأن اليأس والفقر يصرفان إلى التفكير فى المثل الأعلى وينتجان مثل هذا الحب الذى عبر عنه القوم فى غزلهم العفيف ، « ولعل الأولى بالفقير المحتاج أن يثور على المجتمع الذى حرمه ما أباح للآخرين » . وفى هذا القول مغالطة دقيقة ، لأن اليأس لا يثور ، بل يستسلم لقدره ، ويحاول أن يعزى نفسه -إذا بقيت لديه بقية من دوافع الحياة ، بالاستعلاء على ألمه ، أو اكتشاف مجال آخر يستطيع أن يؤكد فيه ذاته . ويتوسع فيما سبق إليه طه حسين من القول بأثر الإسلام ، ويتلمس هذا الأثر ليس فى جانبه الأخلاقى والعقيدى فقط ، بل فيما استحدث بنظامه الاجتماعى الجديد ، ويحصر ذلك فى أمرين : أن الإسلام نظم العلاقات الجنسية فأعان بذلك على إعلاء الغريزة ، ورفع مكانة المرأة فى المجتمع ، فما عادت أداة لإشباع الشهوة وتطمين الغريزة .

ويكتب الدكتور محمد غنيمى هلال فصلا ضافيا عن « الغزل العذرى : نشأته وخصائصه »[2] ، وهو يتحفظ على مبدأ « الفقر » كما فعل سابقه ، ولكن من خلال استقصاء لحياة العذريين ، وقد كان أكثرهم على جانب من الثراء ، على أنه يعنى بعناصر جديدة ، وإن لم يعطها الأهمية الأولى وهى : جمال الإقليم ، والإحساس بالعزلة : البادية بما فيها من مناظر جميلة رتيبة ، ثم بما يسودها من عزلة تدفع إلى التعاون القبلى عند الجماعة وتنمية روح الفروسية عند الفرد ، كما لعب الفراغ دورًا واضحا ، وهو أحد العوامل التى عنى بها القدماء كدافع للعشق ، وللحب العذرى بوجه خاص ، ويقول الدكتور هلال : انه من الطبيعى أن تشغل المرأة فراغ ذلك المجتمع البدوى الذى يعوزه كثير من المتع وألوان الفنون التى تألفها المجتمعات . وقد اعتبر الإسلام

---

(١) فى كتابه : الحب العذرى ، نشأته وتطوره ، وقد حصل به مؤلفه على درجة الماجستير سنة ١٩٤٧ من جامعة فؤاد الأول .

(٢) فى صدر كتابه : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، وفيه يتقصى تأثير الأدب العذرى العربى فى الشعراء الفرس ، بما يحمل معنى أن هذا الشعور المتسامى وافد عليهم برؤية إسلامية ليس لهم بها سابق عهد .

العامل الحاسم المؤثر ، أما غيره من العوامل فكان بمثابة تمهيد لتقبل الظاهرة ،فجمال الإقليم والإحساس بالعزلة عاملان قديمان خضعت لهما الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وما كان لهما أن ينميا وحدهما الظاهرة العذرية . وقد نمّى العامل السياسى جانب العزلة فى البادية ، ولكن الإسلام غير البناء الروحى للفرد ؛ إذ أقر الإيمان بخلود الروح ، وما بعد الموت من جزاء ، وهو عكس ما كان سائدا فى عصر الوثنية الذى أفرز تصور مادية الحياة ومن ثم الاندفاع نحو انتهاب اللذات . بعبارة واحدة : لقد أصبح الإنسان الجديد فى ظل العقيدة قادرا على التسامى ، فالزهد فى متع الحس ، والإيمان بخلود الصداقة والحب ، والحرص على العلاقات الطاهرة ، قد أسست على قاعدة دينية صلبة ، نجدها فى آيات القرآن الداعية إلى ايثار البساطة ،والخلوص للعبادة ، ومقاومة الهوى ، واعتبار مقاومة الميول الدنيا جهادًا أكبر ، فى مقابل الحرب ، أو الجهاد الأصغر ، فليس غريبا أن يربط الشعراء العذريون بين الجهادين ، وأن يعتبروا جهادهم فى الحب أقسى مما يعانيه المحاربون ؛ فيقول جميل :

لكل حديث عندهن بشاشة ... وكل قتيل عندهن شهيد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد ؟

فمسلك العذريين – كما يقول الدكتور هلال – « يقارن بمسلك الزهاد الأتقياء ، إذ أنهم وجدوا طريقا يوفقون فيه بين زهدهم ومطالب عاطفتهم ، وأطاعوا فى حبهم العف قلوبهم ودينهم » . أى أن العذرية توفيق بين الحب الجامح والإيمان العميق ، أو ارتفاع بالحب إلى مستوى الإيمان فى حالة من توحد الشعور .

ويقف الدكتور صادق جلال العظم منفردا على الجانب الآخر فى فهم وتفسير العذرية[1] . وهو يمهد لرأيه المخالف لكل ما سبق ، والرافض لكل ما سبق بالإشارة إلى ما يسميه « مفارقة الحب » التى تقوم على التناقض بين الامتداد والاشتداد ، فلا يمكن الجمع بينهما بشكل مستمر ، وتتجسد نزعة الامتداد فى الحب ، فى مؤسسة الزواج والأسرة التى يفترض فيها أن توفر الطمأنينة والاستقرار للمتحابين ، وأن تشكل حجر الزاوية فى بنيان المجتمع واستمراره ، وفى ثبات تقاليده وأنماط سلوكه ، أما نزعة الاشتداد فإنها تتجسد فى المغامرة الغرامية القائمة على الغزو والمفاجأة ، مما يزيد من عنف نشوة الحب وقوتها حتى يشعر العاشقان بأنهما قد خرجا عن نطاق الزمان وعاشا ساعة فيها من زخم الحياة وامتلائها ما يعادل مئات الساعات بل آلافها من حياة الرتابة والهدوء والمشاغل اليومية التافهة . والزوجان هما المثل الأعلى لشريعة الامتداد ، أما الدونجوان فإنه النموذج المحتذى لشريعة العشق والاشتداد . ويرى الدكتور العظم كذلك أن

(١) فى كتابه : فى الحب والحب العذرى .

حرص الدونجوان على توهج عشقه واحتفاظه بتوتره فى الذروة ، يجعله يرفض العلاقات العاطفية المستقرة والمستمرة ، ويظل فى تنقله واحتقاره للزواج والأزواج باغراء الزوجات واختلاسهن ، ويرى أن هذه الشخصية الدرنجوانية تتجاوب مع نزعة دفينة مكبوتة فى نفس كل فرد منا ، تمثل الانعتاق من قيود شريعة الامتداد التى تغلف حياتنا . وحين يصل الدكتور العظم إلى الحب العذرى فإنه يعتبره ظاهرة غريبة ، ربما من زاوية أن الجميع يدافعون عنه فى صورته المأثورة ، ومع هذا لا أحد منا يلزمه سلوكيا أو يمارسه ، وربما كان ذلك وراء رفضه لتصورات القدماء والمحدثين عنه . ويكشف الباحث عن التناقض البادى بين بدايته وتطوره ومشاعرنا تجاه أطراف العلاقة ، متخذا من جميل بن معمر وبثينة مثالا لذلك ، فأول العلاقة كان شجارا وسبابا على أثره أحب جميل بثينة ، ثم يتساءل الباحث : لماذا لم يكتم جميل حبه لبثينة ويتقدم لخطبتها إن كان حقا يريد الزواج منها ؟ ويرى أن هذا العاشق ، ومثله كل العذريين ، ومثلهم الفتيات المعشوقات أيضا – قد فعلوا جميعا كل ما بوسعهم لعرقلة الوصول بعلاقة الحب إلى الزواج ، لأن العاشق فى هذا اللون من الحب يبحث فى الحقيقة عن حدة الانفعال فى العشق ، ويريد العمل دوما على تصعيد توتره إلى أعلى درجة ممكنة ، ومن هنا يفترق العاشق العذرى عن الدونجوان التقليدى المتنقل دوما يبحث عن مغامرة جديدة ، بأن يركز العاشق العذرى أحاسيسه على محبوبة واحدة فريدة ، ويؤمل النفس دوما بالحصول عليها ، ولكنه يصطنع فى الوقت ذاته جميع العراقيل الممكنة ليحول بينه وبين امتلاكها ، لأنه يعلم علم الدونجوان بأن العاشق –كما يقول الجاحظ فى القيان – متى ظفر بالمعشوق مرة واحدة نقص تسعة أعشار عشقه !! ومن ثم فإن التغنى بالعفة والطهر والحياء ليس إلاّ ذريعة يتذرع بها العاشق العذرى ليحقق غايته فى استمرار الانفصال ، ويؤكد هذا المعنى بالتطرق إلى تفاصيل بعض العلاقات حيث كان العاشق يقتحم خباء محبوبته ، أو تسعى إليه فى خلوته بالصحراء . ويستعين الدكتور العظم بكتاب الأغانى أو بسيرة جميل بصفة خاصة ، التى تروى بعض أخبارها أنه كان فى دار بثينة ، وأنه فوجىء بزيارة ذويها ، فدعته إلى أن يلقى بنفسه تحت متاع البيت ، وقد كان جميل قبل ذلك نائما إلى جوارها فى الفراش ، ثم يقبل زوج بثينة ومعه أبوها وأخوها ، يأخذ بأيديهما ولا يشك فى أنه سيطلعهما على ريبة كما أنبأه غلامه ، فلما كشفوا الثوب وجدوا أم الجسير –أختها – ترقد حيث كانوا ينظرون جميلا ، فخجل الزوج . وصاحت أختها ليلى : قبحكما الله ! أفى كل يوم تفضحان فتاتكما ،ويلقاكما هذا الأعور – تعنى زوج بثينة –بكل قبيح !! ونجد أشباها لهذه الحادثة عند محبين عذريين آخرين . ويشير الدكتور العظم أخيرًا إلى أن هذا اللون من قصص العشاق يجعل من الزوج الشخصية الشريرة فى القصة ، وتتم الأحداث دوما على حساب شخصيته وكرامته ، بتشويهه جسديا أو نفسيًا . ومن ثم لا نشعر – حين نقرأ هذه القصص – بالعطف على الزوج المخدوع الذى لا ذنب له فى الحقيقة سوى التقيد بأعراف مجتمع البادية

وعاداته ، ولا نشعر بالتجاوب مع ذوى الفتاة الذين يمنعونها عن حبيبها تمسكا منهم بأخلاقهم وشرائعهم لاحبا بالقسوة بذاتها ، أو رغبة بانزال الشر ببناتهم ، كما أننا –انسجاما مع الرواية –نتغافل عن تهمة الزنا الماثلة ، ولا يزعجنا أنهما لا يندمان مطلقا على ما ارتكبا من معصية ، « كل ذلك باسم الحب الطاهر العفيف وفى سبيله » !! ومن ثم ينتهى إلى أن الحب العذرى – وخلافا للآراء الشائعة –شهوانى فى أصله ، ونرجسى فى موضوعه ومنحاه ، لأن اهتمام العاشق وهيامه ينصبان فى الواقع على ذاته ومشاعره وأحاسيسه وخياله ، لا على حبيبته . وشهوانيته تتبدى فى منعه الرغبة فى امتلاك المحبوب منعا مستمرا ، والتفنن فى تقريب ساعة الاكتفاء والاشباع تارة وابعادها تارة أخرى ، وذلك بشتى الوسائل الممكنة ،حتى تضطرم نار العشق فتذيب عقله وتتلف جسده ، وهو بذلك أبعد ما يكون عن التغلب على شهوته والسيطرة عليها ، بل على العكس . انه يرعى هذه الشهوة ويؤججها بتقريب الثمرة المشتهاة ثم الامتناع عن اقتطافها . ونتيجة لكل هذه الاستنتاجات فإن الدكتور العظم يعتبر الحب العذرى حالة مرضية « سادوماسوكية »[1] يعذب فيها المحب نفسه وغيره ، دون غاية واضحة ، وإنما لمجرد الاستمتاع بالألم .

هذه الاتجاهات فى تفسير الظاهرة هى الأسبق زمانا والأكثر تميزا ، وما جاء بعدها إنما هو تفريع عليها أو مزج بينها ، وقد لا يسلم المزج من تناقض أو اضطراب . ولا نحب أن نسترسل فى تقصى الصورة ، فليس من أهداف هذه الدراسة أن تؤرخ لموقف المعاصرين على تعددهم وتكرار أقوالهم . على أننا نحب أن نشير – ولو بايجاز شديد – إلى جانب من « المحاذير » التى تعثرت فيها – أو أوشكت – بعض الآراء السابقة . إذ يتجه بعضها إلى الاهتمام بالشعر وحده ، ويعتبره مفتاحا لفهم الظاهرة ،ليس فى وجهتها الفنية فحسب ، وإنما السلوكية الواقعية أيضا ، فى حين يهتم رأى آخر بالأخبار المروية ، على تناقضها وتداخلها ، واحتمال الوضع والتزيد فيها ، ومع هذا فإنه يعتبرها دليلا لا يجحد من حيث تنصر رأيه الخاص . وفى حين يمزج بعض منهم بين الشعراء العشاق والزهاد الفقهاء من العشاق ، نجد بعضا آخر يسقط أحد الفريقين أو يسلط أكثر الضوء عليه لتسلم له وجهته ، على أن الإسراف فى استنطاق جميل ، والاستنباط من أخباره بصفة خاصة ، واقحام كثير بشكل واضح يعطى حق تعميم الأحكام ، ولا يعين على سبر التجربة فى أهم خصائصها ، فحول جميل أخبار ظنية كثيرة ، ووسم كثير بأنه يتقوّل ، وليس بعاشق لعزة ، بل قيل انه تعرض بالغزل لعزة وهو يحسبها أختها ، على أنه لم يكن يستمتع بأهم عناصر البناء النفسى للعاشق العذرى ، ولا نعنى الجمال أو الوسامة

---

(١) هى مركب مزجى من مصطلحين هما : Sadism ويعنى الإنحراف الجنسى الذى يتلذذ فيه المرء بتعذيب الآخر ، و Masochism، وهو المعنى المقابل للسادية ، فاللذة الجنسية هنا تحدث نتيجة للتعرض للألم الجسدى .

والفراهة ، وقد كان أكثر العذريين كذلك ، أى أنهم بطبيعة تركيبهم العضوى محل جاذبية واقبال ، فى حين كان كثير ضئيلا دميما ، وإنما نعنى الجانب النفسى ، إذ كان منغمسا فى الصراع السياسى ، ومارس المدح والهجاء ، وقبل العطاء بل سعى إليه من أعدائه السياسيين . والذى نعتقده أن أخبار العذريين لا تزال فى حاجة إلى رصد وتصنيف ، وكذلك أشعارهم التى حظيت بقدر من ذلك ، لنستكشف منها أوجه التوافق والاشتراك ، أو المخالفة والانفراد ، لعلها أن تعطينا بعض المؤشرات التى تعين على فهم هذه الظاهرة ، ليس فى عصر ازدهارها فقط ، فالحق أنهـا ظاهرة مستمرة ، وان تخفت فى إزياء « فنية » مختلفة بدوافـع يمكن تلمسها .

العذرية : بين التخصيص والتعميم

سنحاول فى هذه الفقرة أن نعود إلى جانب هام من جوانب الحب العذرى ، هو على التحديد مدى صلة القرابة بين المحب ومحبوبه ، وعلاقة هذه الصلة بالظروف والهيئة التى تم فيها اللقاء الأول بين الفتى والفتاة . لقد أمدتنا المصادر القديمة بأسماء عدد لا يستهان به من العشاق الذين وصفوا بأنهم عذريون ، ولكن هذا العدد لم يخرج الظاهرة العذرية عن خصوصيتها ، فلم تكن سمة شاملة لأدب العصر أو أخلاقياته ، وعلينا أن نبحث عن عامل أخص من العصر وملامحه السياسية والاجتماعية ، وليس العزلة وجمال الاقليم فحسب ، بل علينا أن نبحث فيما هو أخص من العقيدة الدينية مادامت العذرية صفة خاصة لبعض تجارب الحب ، ويمكن فى هذا المجال – أن يقدم علم النفس لنا خدمة جليلة ، ولكن الوثائق الفنية – الشعر – وحدها لا تكفى ، فنحن فى حاجة إلى مراقبة السلوك مثل حاجتنا إلى تحليل التجارب والصور والكلمات ، كما لم يكن العذريون جميعا من الشعراء ، وان كان أكثرهم كذلك . فلنأخذ الآن فى بعض أخبارهم ، لعلنا نجد بعض الصفات المشتركة فى جانب النسب واللقاء الأول ، بل لعل بعض هذه الأخبار تجعلنا نعيد النظر فى مفهوم العذرية أصلا وتصورنا المفترض لها .

وطرف الخيط هنا يقدمه لنا ابن فهد الحنبلى ، الذى يروى كثيرا من أخبار المحبين العذريين ، ثم يقول : « يزعمون أن هؤلاء الذين ماتوا من العشق أُوجنّوا هم الذين عشقوا بنات العم والجيران فى الحداثة ، وأن ذلك العشق هو الذى لا يزايل صاحبه أبدا ، بل لا يزال به حتى يموت كمدا أو يهيم على وجهه »[1]

ولنحاول أن نرعى هذا القول (القرابة والحداثة) مضيفين إليه شعاعًا عن ظروف اللقاء الأول ، ما أمكن ذلك .

---

(١) منازل الأحباب ومنازه الألباب – مخطوط - ورقة رقم ١١ .

أشهر المشهورين بالعشق – على حد تعبير ابن الجوزى – مجنون ليلى ، ومهما اختلف الرواة فى تفاصيل نسبهما فإن الإجماع منعقد على أنهما عامريان ، وأنها ابنة عمه . ثم يورد الأصفهانى أكثر من رواية عن ظروف اللقاء الأول :

فقيل انه كان يهوى ليلى وهما صبيان يرعيان مواشى أهلهما فلم يزالا كذلك حتى حجبت عنه ، ويدل على ذلك قوله :

تعلقت ليـــلى وهى ذات ذؤابة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

وقال ابن الكلبى : كان سبب عشق المجنون ليلى أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلل الملوك ، فمر بامرأة من قومه يقال لها كريمة ، وعندها جماعة نسوة يتحدثن فيهن ليلى ، فأعجبهن جماله وكماله ، فدعونه إلى النزول والحديث ، فنزل وجعل يحدثهن وأمر عبدًا له كان معه فعقر لهن ناقته ، وظل يحدثهن بقية اليوم ، فبينما هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد الأعراب يقال له منازل ، يسوق معزى له ، فلما رأينه أقبلن عليه وتركن المجنون ،فغضب وخرج من عندهن ، وأنشأ يقول :

أأعقـــر من جـــرا كريمـــة ناقتى ووصلى مفروش لوصـــــل منازل
إذا جـــاء قعقعن الحلى ولـــم أكن إذا جئت أرضى صوت تلك الخلاخل
متى ما انتضلنا بالســـــهام نضلته وإن نرم رشـــقا عندهـــا فهو ناضلى

فلما أصبح تعرض لليلى ، فلما رأته قالت :

كلانا مظهر للناس بغضا وكل عند صـــاحبه مكين
تبلغنـــا العيون بما أردنـــا وفى القلبين ثم هوى دفين

فلما سمع البيتين شهق شهقة شديدة ، وأغمى عليه ، فمكث على ذلك ساعة ، ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق ، وتمكن حب كل واحد منهما فى قلب صاحبه .

* وذكروا أنها كانت من أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن جسما وعقلا ، وأفضلهن أدبا وأملحهن شكلا ، وكان المجنون كلفا بمحادثة النساء صبابهن ، فبلغه خبرها ونعتت له ، فصبا إليها وعزم على زيارتها ، فتأهب لذلك ولبس أفضل ثيابه ورجّل جمته ومس طيبًا كان عنده ، وارتحل ناقة له كريمة برحل حسن ، وتقلد سيفه وأتاها ، فسلم فردت على السلام وتحفت فى المسألة ، وجلس إليها فحادثته وحادثها فأكثرا ، وكل واحد منهما مقبل على صاحبه معجب

به ، فلم يزالا كذلك حتى أمسيا ، فانصرف إلى أهله غبات بأطول ليلة شوقا إليها ، حتى إذا أصبح عاد إليها ، فلم يزل عندها حتى أمسى[1] .

* ويجتمع الصمة القشيرى مع ابنة عمه ريا فى مسعود بن رقاش فى أكثر الأقوال . ويذكر الأنطاكى أن ريا نشأت مع الصمة صغيرين ، وأنهما كانا يتذاكران الأدب وملح الأشعار ، ويكمل الأصفهانى هذه البداية المبكرة فيذكر أنه خطبها ،فاشتط عليه عمه فى المهر ، فسأل أباه أن يعاونه ، وكان كثير المال فلم يعنه بشيء ، فسأل عشيرته فأعطوه ، فأتى بالابل عمه ، فقال لا أقبل هذا فى مهر ابنتى ، فاسأل أباك أن يبذلها لك ، فسأل أباه فأبى ذلك ، فلما رأى ذلك من فعلهما قطع عقلها وخلاها ، فعاد كل بعير منها إلى ألافه[2]

* يلتقى جميل بن معمر مع بثينة فى الجد الأول – فى بعض الروايات – وتدل أخباره على تفاوت واضح فى العمر بينه وبين بثينة ، إذ يذكر الأغانى أن جميلا كان ينسب بأم الجسير – أى كان له حب سابق ، ثم تبدأ علاقته ببثينة عقب حادث صبيانى لا تفعله الفتاة الرشيدة الناضجة ، فقد أرسل ابله فى وادى بغيض – وتأمل الدلالة الضدية فى اسمه – واضطجع ، فى حين أقبلت بثينة مع جارة لها تردان الماء ، فنفرت بثينة بعض الابل « وهى إذ ذاك جويرية صغيرة » فسبها جميل ، فردت عليه سبابه بأشد منه ، فملح إليه سبابها ، فقال :

وأول ما قـــاد المودة بيننا ... بوادى بغيض يابثين سباب
وقلنا لها قولا فجاءت بمثله ... لكل كـــلام يابثين جواب

وتضيف رواية أخرى تعريفا مهما إذا تذكر أن أم الجسير هى أخت بثينة ، وتذكر هذه الرواية مناسبة اللقاء الأول فتجعله يوم عيد ، والنساء إذا ذاك يتزين ، ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال ، فرآها جميل وعشقها حتى عرف رفاقه ورفاقها .وتضيف الرواية أن بثينة لما أخبرت بنسيبه بها ، حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلاّ خرجت إليه ولا تتوارى منه ، وفى خبر آخر أنه ذهب للقائها خلسة على عادته ، ففطن له قومها وشددوا الحراسة عليها ، فرجع إلى أهله كئيبا سيىء الظن بها ، « فجعل نساء الحى يقرعنه بذلك ويقلن له : إنما حصلت منها على الباطل والكذب والعذر ، وغيرها أولى بوصلك منها ، كما أن غيرك يحظى بها »[3] .

---

(١) هذه الروايات وغيرها فى الأغانى جـ ٢ ص ١١ – ٢٠ .
(٢) تزيين الأسواق فى أخبار العشاق ص ١٦٧ والأغانى جـ ٦ ص ٧ .
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٩٠ – ١٠٠ .

ويشير الأستاذ العقاد فى دراسته عن جميل أنه كان صعبا لا يقاد ، وكان شديد الخيلاء حتى رفض أن يمدح عظماءعصره ، وأنه كان يتحامق ويحمق فلا يستتر طبعه ، إذا ثار وتربد وجهه وثب نافرا مقشعر الشعر متغير اللون . ويستدل على حمقه بقوله :

لا لا أبوح بحب بثنة إنهـا أخذت علىّ مواثقا وعهودا

فضرب بهذا البيت المثل على حماقة كاتم السر الذى أقسم ألاّ يبوح وقد باح فى قسمه به . وفى تفاصيل علاقة جميل ببثينة نجده يضطجع إلى جانبها فى خبائها ليلة كاملة ، كما نجده يجفوها حين أحبت غيره (حجنة الهلالى) وله فى ذلك شعر يعترف فيه بذلك :

فعدنا كأنا لـــم يكن بيننا هـــوى وصار الذى حل الحبال هوى لها[1]

* ويذكر ابن الجوزى أن عروة بن حزام وعفراء ابنة مالك العذريين ، هما من بطن من عذرة ، وكانا ابنى عم ، وقد نشأ عروة يتيما فى حجر عمه حتى بلغ ، وكانت عفراء تربا لعروة ، يلعبان معا حتى ألف كل واحد منهما صاحبه ، فكان يسأل عمه أن يزوجه عفراء ، وكان العم يقول : أبشر فان عفراء امرأتك إن شاء الله تعالى . فلما يئس عروة من اجابة عمه استعان بعمته ، فذهبت إلى أخيها فقالت : يا أخى قد أتيتك فى حاجة يأجرك الله عليها ، تزوج عروة عفراء . فقال : ما عنه مذهب ، ولكنه ليس بذى مال ، وليست عليه عجلة . وكانت أم عفراء لا تريد لها إلاّ من له مال . وتمضى الرواية متضمنة هذا الخلاف فى الرأى بين الأب والأم دون أن تتكرر الإشارة إليه ، لكننا نعرف النتيجة حين يقدم الخاطب الثرى الغريب (أو هو ابن عم الأب فى خبر آخر) فيعتذر إليه الأب وتجيبه الأم التى تصرف زوجها عن رأيه ، وبخاصة أن عروة كان قد رحل بحثا عن المال وانقطع خبره ، واعتمدت الأم على الحجة الخالدة وهى انتهاز الفرصة السانحة وتفضيل الواقع على المحتمل ، فقالت : « قد جاء الغنى إلى بابنا ، ولا ندرى أعروة حى أم ميت ، وهل يأتى بشىء أم لا » . وهكذا يتم زواج عفراء بالغريب ، ومن ثم الرحيل ، ويعود عروة ليجد كل شىء قد انهار ، فلا يكون أمامه إلاّ أن ينهار أيضا[2] .

هذه أخبار بعض مشاهير العذريين الذين عنيت بهم كتب الأدب وكتب الحب على سواء ، لم نحرص فيها على التدرج الزمنى ، وحين نختار « عينة » من أخبار أنصاف المشاهير فإننا سنجد الطابع نفسه تقريبًا ، ولسنا بحاجة إلى الإطالة ، ونكتفى بهذه الإشارات التى وردت عند داود الأنطاكى :

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١١٥ ، ١١٩ .

(٢) ذم الهوى ص ٤٠٧ – ٤١١ .

* عن كعب وميلاء ، يذكر أن كعبا قد خطب إلى عمه أخت ميلاء ، غير أنه بعد أن أنجب منها تعلق باختها ، ولم ترض الأخت كما لم ترض الأسرة عن هذا التحول ، وكانت ميلاء قد استجابت لعاطفته ، وطورد الفتى حتى هرب إلى الشام وبقى هناك زمنا طويلا حتى غابت أخباره ، فلما عرفوا بمكانه أحضروه ، وتوافق أن يوم عودته كان يوم وفاة ميلاء ، « فلما سمع ذلك وضع يده على قلبه واستند إلى طنب البيت ، وحرك فوجد ميتا ، فدفنوه إلى جانبها رحمة الله عليهما » .

* وعن قيس بن منقذ الكنانى المشهور بابن الحدادية ، يذكر أنه كان يهوى نعمى الخزاعية ، وكان كنانة وخزاعة يتقاربون فى المنزل لأن بينهم نسبا لم ترم فيه العصا ، فكان قيس يجلس إلى نعمى فيتحادث معها ، فدخل بينهما الهوى . وقيل انها رأته وقد ركب يوما فى ملعب وزينة ، ففخر على أكثر من حضر بالشجاعة ، فدعته للمحادثة ، وقد نزلت مع أتراب لها على منتزه ، فنزل وتحادثت معه ساعة ، فأقبل راع يسوق غنما فاشترى قيس منه عنزة وذبحها للنساء ، ونشأ الودّ إلى أن أجدبت سنون فارتحلت كنانة وافترق الحبيبان ، ثم تغير الحال فعادت القبيلة إلى موقعها القديم ، ولم تكن خزاعة هناك ، وظلت ذكريات الحب واللقاء تعاود الفتى وتتفاعل فى نفسه « ثم لم يزل متعللا بالأمانى يعتوره الخيال أياما إلى أن بلغه أن خزاعة بجبل بالشم من اليمن ، فارتحل حتى وقع بهم ، فقيل انه عند رؤيتها سقط ميتا » .

* وعن عامر بن سعيد بن راشد الطائى ، يذكر أنه كان يهوى ابنة عمه جميلة بنت وائلة بن راشد ، ويذكر أن ولادتهما كانت فى ليلة واحدة ، وأنهما نشآ غير متفرقين حين بلغا الحلم وقد اشتد كلف كل منهما بصاحبه ، وكان أبوه ذا ثروة طائلة ، وقد اتفق مع وائلة على تزويج ابنته من عامر ، فاتفق أن حدثت واقعة بين تميم ومزينة ، وفقد سعيد ثروته بكاملها ، فمات كمدا وأملق أهله « فامتنع وائلة من تزويج عامر ، وحجبت جميلة عنه ، فاختبل واعتوره الجنون » ، وتقدم لجميلة من تزوجها وعلم الفتى ففاضت نفسه ، فسعت أمه أن يبلغ الخبر حبيبته ، فما علمت حتى فاضت نفسها ، « فخرج شيخ وهو يقول : لئن لم أجمع بينكما حيين ، لأجمعن بينكما ميتين ، ودفنهما فى قبر »[1] .

ويتكرر نفس النمط من الأخبار القصصية مرات عديدة ، متوكئا على أسماء لها وجود تاريخى ، أو وجود مشكوك فيه ، بل قد يروى خبرًا كاملا ، وعلى النسق نفسه ، دون تحديد أشخاص ، وإن كان لا يفوته أن يحدد راوى الخبر .

وأحسب أن باستطاعتنا الآن – بسهولة – أن نكتشف القدر المشترك من الظروف والصفات فى هذه الأخبار ، التى تبلغ فى حبكتها مبلغ القصص المصنوعة أو تكاد .ان حب ابنة العم أو

---

(١) تزيين الأسواق فى أخبار العشاق ص : ١٧٠ ، ١٨٤ ، ١٩٤ .

القربية جدا صفة مشتركة ، هو حب متوقع لقرب المكان وطبيعة تنشئة الصبية فى الحى ومعرهم ، ولا تكتفى بعض الروايات باثبات القرابة بل تمضى إلى ما هو أكثر من ذلك بأن تقول إنهما ولدا فى لبنة واحدة ، أو أن الفتى نشأ فى حجر أبى الفتاة . تأكيدا لمعنى القرابة وتوثيقا لعرى التلاقى المبكر . ولابن العم على ابنة عمه حقوق لا تزال مقررة فى جميع البيئات العربية إلى اليوم ، وأولها حق ألا تردّ يده إذا تقدم خاطبا ،وإلى يومنا هذا كم من شقاق عائلى حدث ويحدث نتيجة للخروج على هذا المبدأ الحيوى بالنسبة لوحدة القبيلة وتماسكها ، ولما له من دلالة التكافؤ حتى فى المجتمعات التى لا تعيش نظام القبيلة ، وقد يحدث العكس أيضا بأن يؤمل أهل الفتاة أن ابن عمها سيتقدم للزواج منها ، ويعلقون الآمال على ذلك ، وبخاصة إذا كان ذا مكانة أو ثروة ، أو كانت الفتاة غير مرغوبة لسبب من الأسباب ، وقد يلمحون إلى ذلك أو يحدثونه صراحة ، وهذا يعنى أن من « واجب » ابن العم أن يتقدم لإنقاذ كرامة ابنة عمه ، وكم من جراح فى المشاعر والقلوب والعلاقات تحدث إذا ما تهرب ابن العم من « أداء واجبه » بعد أن حدثوه فى ذلك صراحة أو تعريضا .

وفى أكثر من خبر يتأكد فارق الثروة بين أهل الفتى وأهل الفتاة ، وغالبا ما يكون أهل الفتى هم الأكثر ثراء ، وهذا واضح فى حالة المجنون وقيس بن ذريح والصمة القشيرى ، وجميل ، وقيس بن منقذ الكنانى ، وعامر بن سعيد . وهذا سيعنى تدخل عامل الثروة لتعويق عامل كفاءة النسب وحق القرابة ، فأكثر هؤلاء الآباء كان يرى ابنه جديرا بفتاة ثرية تليق بابنه الثرى . وهنا تقدم هذه الأخبار إضافة ذات تأثير درامى ، يجعل قصة الحب الطبيعية بين ابنى عم متحابين أكثر توترا وقلقا ، فيحدث تبادل فى مواقع الفقر والثراء ، ومن ثم يتحول الطالب إلى مطلوب ، ويأخذ المرفوض مكان الرافض . كان الصمة القشيرى ابن رجل كثير المال ، ولكنه كان بخيلا ، فهو والفقير سواء ، ويبلغ من بخله أن يمنع المهر عن ابنه ، فيستعين هذا الابن بالعشيرة ،فتعينه ، ولكن والد الفتاة يحتقر المعونة (لا أقبل هذا فى مهر ابنتى) وهى ليست بالحقيرة ، لكنه يريد أن تكون صلته بثروة القشيرى مباشرة ومؤكدة ، وكيف لا يطمح إلى ذلك وهو بسبيل أن يدفع إليه بابنته المحبوبة ! ويرتبط هذا الرفض باشتطاطه فى المهر أصلا ، وكأنه يضع الملح فى الجرح متحديا ، فهو يعرف أن صهره المحتمل –والد الفتى – رجل بخيل !! ويظهر الصراع مرة أخرى فى خبر عروة بن حزام – وهو الفقير هذه المرة ، ولكن فقره لا يفقده حق ابن العم (ما عنه مذهب ، ولكنه ليس بذى مال) !! وهذه العبارة قالها الأب ، ولكن الأم التى اعتبرت الصفقة خاسرة بالنسبة لابنتها ، وليس لديها من دواعى القرابة ما لدى زوجها ، قد استطاعت أن تجد مذهبا فى الفرصة السانحة . ويتكرر انتقال أهل الفتى من الغنى إلى الفقر بسبب الجدب أو الحرب مرتين : عند قيس بن منقذ وعامر بن سعيد . وتفاوت الثروة الذى يؤدى دورا فعالا فى تحطيم قصة الحب يتعلق عادة بموقف الآباء ، وهم – حسب العرف

العام – حراس التقاليد ، فعلى حين نجد الفتى والفتاة لا يلتفتان إلى اختلاف المستوى المادى ، معنيين بعاطفتهما الخاصة ، نجد الجانب الأقل مالا حريصا على المصاهرة ، والجانب الأكثر مالا زاهدًا فيها ، لا يعبأ بمشاعر ولده ، بل لا يعبأ بأساس مكين من أسس العرف العام المحترم فى المجتمعات البدوية والقديمة بصفة عامة ، وهو كفاءة النسب وقرابة الدم ، وهذا يعنى أن هذه الطبقة أو الفئة الغنية كانت تقف موقفا قلقا من بعض القيم المتوارثة ، تدافع عنها باللسان ، وترفضها بالسلوك ، وكأنها تعلن عن نقلة حضارية قادمة ، تهون من شأن الأمور المعنوية الرمزية ، وترى فى الثروة علامة قوة وامتياز فى ظل النظام الحكومى المركزى ، الذى تقلصت القبلية فى إطاره إلى أدنى مستوى من استقلال الذات والهيمنة على رعاية ما كان يحسب من أهم خصوصياتها . وقد شهدت هذه الفترة نفسها تحولات عديدة جذرية وشاملة لها هذه الدلالة من إهمال المعنوى واضفاء الأهمية على الواقع المادى والاحتكام إليه وحده ، فقد تحولت الخلافة إلى ملك عضوض ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا فلم تسقط الجزية عنهم ، لأن ذلك – كما قالوا – يؤثر على بيت المال ، وإذن فقد كانت المرحلة كلها صراعا بين قيم جديدة يمليها واقع متغير ، وقيم قديمة هى ميراث الفروسية والأخلاق الإسلامية وأعراف البادية جميعا ، وقد استهدفت لقيم الثروة والجاه والبحث عن مخرج لرفض الموروث الروحى والاجتماعى المتحكم .

ومن الطريف حقا أن نجد فى خبرين من هذه الأخبار السابقة :الفتى العاشق يحتمى بالوجاهة والثراء ، ويتصرف تصرف السادة ، ويحظى بود النساء واعجابهن ، ولكن حين يظهر الفتى البدوى البائس الجلف فإنه يجرده من وجاهته فى لحظة واحدة ، بأن تقبل النساء على هذا الفتى الخشن وتنصرف عن الوجاهة والثراء ، وفى المرتين يظهر حنق الفتى على ذلك .

وليس مصادفة أن نجد فى هذه الأخبار – جميعا تقريبا – ما يؤكد وحدة النشأة ، وارتباطها بمراحل الصبا المبكر ، إن لم يكن بالطفولة ، وهذا يعنى أن كلا من الفتى والفتاة كان بالنسبة لصاحبه « الحب الأول » ، هذا الحب الذى لا يزال يقتحم حياتنا إلى اليوم فى إطاره الرومانسى لا يكاد يغيره . فى ظل مجتمعاتنا الحضرية ذات العلاقات المعقدة والقيم المضطربة ، لا تزال قصص الحب الأول تتبرعم وتنشأ فى الطريق إلى المدرسة ، وفى شرفة النادى ، وأثناء رحلة جماعية ،وفى ظل الزيارات العائلية ، تنشأ فى نجوة من رقابة « الكبار » ، وتأخذ مداها الروحى والنفسى من مشاعر العاشقين الصغيرين ، وتتحرك الأقلام تناجى المحبوب فى طلعة القمر وأوراق الورد وخضرة التلال ، ولو أن البناء الثقافى للفتى العصرى يماثل البناء الثقافى وقوة الموهبة التى نجدها عند الفتى فى العصور القديمة حيث يتحرر المنهج وتسقط تكاليف الحياة ، لوجدنا فى كل مرحلة أشباها ونظراء لقيس والصمة وجميل . وفى عصرنا – كما فى عصرهم – نادرا ما يتحول الحب الأول إلى زواج ، انه حب برىء ، يتعبد فى محراب العاطفة وحدها ، ويجعلها

المقياس الوحيد للحكم على الناس والأفعال ، ولهذا يعارضه عادة قوم ناضجون ، لا ينكرون الحب أو يعادونه ولكنهم لا يعتبرونه مقياسا وحيدا ، وهنا تحدث المفارقة ، ويتحول الحب إلى أزمة نفسية ، وكلما زاد اللوم زاد التمسك ، لأن كلاً منهما يدافع عن عالمه الخاص وفهمه للحياة ، وحين لا يقتصر اللوم على الأب مثلا ، وإنما يتجاوزه إلى نساء من الحى ، أو أبناء العم ، فإن هذا الاجماع على تخطيء الفتى لا يزيده عادة إلاّ إصرارا على التمسك بموقفه ، ووسم الجميع بميسم العجز عن فهمه ، وإن كان يترفق فإنه يقول إنه يتمنى أن يسلو ، ولكنه لا يستطيع . لقد كانت الفتاة متجاوبة دائما مع فتاها ، مستجيبة لحبه معلنة لحبها مثله ، وهذا يعنى أننا إزاء جيل فى مواجهة جيل : الأبناء فى مواجهة الآباء ، أو البراءة فى مواجهة التجربة ، والخيال فى مواجهة الواقع . وهذا أمر يتجاوز الجغرافيا والتاريخ ، إلى ما هو أعم منهما ، إلى أطوار النفس الإنسانية ، وتدرجها من سيطرة الشعور ، إلى حكم العقل ، ومن التخيل إلى التحليل ، ومن الحلم إلى الواقع . وبذلك لا ترتبط العذرية بعصر ، إنها مرحلة من العمر ، يجتازها البعض قفزا أو خطفا ، ويقف البعض عندها ، ومجمل الظروف الفردية والاجتماعية هى التى تحدد هذا الامتداد ، وقد كانت هذه الظروف مواتية فى المرحلة المعروفة تاريخيا لأسباب تقدمت ، تماما كما نجد فى فترة محددة ، وفى بيئة محددة موجة أدبية يمكن أن تسمى أدب السخط أو الرفض ، أو الرمزية ، أو الحنين إلى الماضى ، وكلها ذات جذور وامتداد ، وازدهارها فى مرحلة لا يعنى أنها لم تكن ، أو أنها ليست موجودة إلى اليوم ، بل نقول : إنها كانت موجودة دائما ، وستبقى ، لأنها تعبر عن حاجة إنسانية مستمرة ، وتصدر عن فطرة إنسانية خلقية .

شعراء الحب :

وهؤلاء هم الذين تجاهلناهم طويلا ولم نغادرهم أبدا ، ولو وضعنا أشعارهم وسيرهم فى بؤرة الاهتمام لاحتجنا إلى أضعاف تلك الدراسة ، ولوجدنا أنفسنا موزعين بين دلالات أخبارهم وما توحى به تجاربهم الشعرية التى تحتاج إلى أناة طويلة لتكشف عن أعماقها ، على أنهم كانوا فى اعتبارنا دائما ، ولم يخل مكان من هذه الدراسة من أشعارهم والاستعانة بأخبارهم . ومن الصحيح ما لاحظه الدكتور عبد القادر القط من اختلاط أشعار العذريين بعضها ببعض ، فنرى أبياتا لشاعر أقحمت على قصيدة لشاعر آخر ، كما نصادف روايات متباينة للقصيدة الواحدة ، بل يلاحظ أن بعض ما ينسب للعذريين من شعر يبدو بيّن التناقض مع طبيعة الشعر العذرى والأموى بوجه عام من حيث المستوى والاتجاه الفنى[1] ، وإذا كان النحل المتعمد محتملا ،

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى ص ١٣٥ .

فإن تقارب المعانى وأسلوب الصياغة محتمل أيضا ، ولقد كانت نمطية علاقة الحب العذرى بين ابنى العم ، الناشئين معا منذ الطفولة ، المصطدمين دائما بفارق الثروة ، ثم ما يتكرر من لوازم :الغريب الثرى القادم للزواج – لوم نسوة الحى للعاشق الذى جمدت نظراته على فتاة واحدة ، الساعى بكل سبيل إلى افساد زواجها واستردادها ،هذه النمطية تشعر بتدخل الصنعة القصصية لتشكيل الخبر المأثور ، وتحويله إلى بناء فنى له دلالة محددة يريد راوى الخبر القاص أن يصل إليها .

ويجدر بنا أن نتأمل أنه حين يغيب دور الصناعة القصصية ، فإن قصة المحب العذرى تتضمن ما يناقض عذريته المفترضة أو المفروضة ، ولكننا نرى أنه لا يناقضها بل هو من صميم التجربة الإنسانية ، التى تتجاوز النمط العذرى التقليدى فى صياغة الأخلاق والسلوك . ونذكر بما ورد من أن قيسا – وقبل أن يحب ليلى – كان كلفا بمحادثة النساء وأنها وصفت له فسعى إليها ، فكان الحب الذى محا ما قبله ، وهذا ما تطيقه الطبيعة البشرية ، ولكن الذين افترضوا صورة محددة للمحب العذرى لا يطيلون الوقوف عند هذا الخبر لأنه يخدش الصورة التى يفضلونها ، وكذلك لا يهتمون بحب بثينة لغير جميل ، وهو حل حاولت الفتاة أن تلجأ إليه بعد اليأس من جميل ، ولكن القدماء والمحدثين ، فى حرصهم أن يكون المحب العذرى ثابتا لا يتحول ولا يعرف الشركة ، يهملون مثل هذا الخبر الذى لا ينافى التوحد ولكنه يؤكده ، إذ فشلت التجربة ،وظل القديم على قدمه ، بل قد نجد فى أشعار محب عذرى سابق على عصر العذرية ما يشير إلى تعدد تجاربه ، حتى بعد حبه المشهور ، إذ يقول المرقش ، الذى أحب ابنة عمه أسماء وعلقها وهو غلام :

ورب أسيلة الخدين بكـــر منعمة لهـــا فـــرع وجيد
وذو أشر شتيت النبت عذب نقـــى اللـــون براق برود
لهوت به زمـــانا فى شبابى وزارتهـا النجائب والقصيد

ومن حيث المبدأ فإنه من الشائع بين دارسينا أن الشعر العذرى شعر نفسى ، لا يهتم ببناء التجربة بناء فنيا عقليا قدر اهتمامه بأسرار نفس الشاعر[1] ، وقد لا نجد ما يقنعنا بذلك ، كما لا نجد ما يقنعنا من ضرورة الالتواء بكل معنى حسى من معانى الحب وأخباره ، وكأن المحب العذرى ينبغى أن يكون عذريا فى ليله ونهاره ، فى صدر شبابه وفى آخر أيام حياته ، وفى حبه الأول وحبه الأخير ، وكأن تجارب الحياة لا تمر به ، ولقد مر بنا من أخبار جميل وبثينة مالا تصح معه العذرية كما يفرضونها ، كما نجد الالتواء بمعنى بيته الشهير :

---

(١) انظر فى ذلك : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص ٣٢٦ خاصة ؛ والمرجع السابق يوافقه على هذا . انظر ص ١٤٤ .

ألم تعلمى يا عـــــذبة الريق أننى أظل ، إذا لم أسق ريقك ، صاديا

فنجد تحذيرا من إساءة الظن بهذا المعنى المادى الواضح ، « فحديث جميل عن ظمئه إلى ريقها ليس إلاّ بقية باقية من التراث النفسى المختزن فى الشعر الجاهلى تسرب إلى الشاعر عن طريق هذا الشعر فانطلق به لسانه على غير النحو الذى ينطلق به لسان الجاهليين ، وإنما أراد منه جميل معناه المطلق الذى يتصل بالودّ واللقاء والبث ، فأما صورته هذه المادية الواضحة فقد كان لبوسا من لبوس التعبير »[1] ، وقد نعجب من لبوس ينتج عن الوضوح ، ومن عادة اللبس فى التعبير أن يكون ثمرة الغموض !! وعلى أى حال فإن مثل هذه المحاولة هى ثمرة متوقعة لتقسيم شعراء الغزل إلى حسيين وعذريين ، وافتراض قطيعة مطلقة بين الفريقين ،واختلاف قاطع فى وجهة كل الفنية والسلوكية ، وهو مالا يقره الوعى بالانسان وتأمل نموه عبر التجارب والحالات ، ومراقبة أفعاله وردود تلك الأفعال . ونتقدم خطوة أخرى نحو فكرتنا الأساسية بأن نتساءل : لماذا تستهدف سيرة جميل أكثر من غيره من العذريين (باستثناء كثير المشكوك فى عذريته أصلا) لاكتشاف ما يناقض مفهوم العذرية الشائع بأنها التجرد الكامل من أية مشاعر أو تعلقات مادية شهوية بالمحبوبة ؟ لنرجع إلى أخبار جميل فنجد فيها الجواب ، لقد كان جميل أكبر سنا من بثينة ،كان راعيا وفارسا فى حين كانت هى (جويرية صغيرة) وإذن فقد كان حبها الأول ، ولكنها – وهذا احتمال – لم تكن كذلك بالنسبة إليه ، ولقد جربت هى حبا آخر بعد وقت من التعلق به ، وعاتبها شعره على ذلك . وانه لمن المهم أن نعرف أن جميلا قد عاش حتى تقدم به العمر ، يماثله فى ذلك عمر بن أبى ربيعة ، وكذلك أكثر من اعتبروا متغزلين حسيين ، فى حين تتوارد الأخبار مؤكدة أن أحدا من العذريين لم يعمر ، وأنهم كانوا يخترمون فى صدر شبابهم ، وقد اعتبر الحب مسئولا عن ذلك ، وهذا جائز كما أن العكس جائز ، فقد يكون حبهم هذا راجعا إلى ما يشكون من انحراف وضعف صحى ، وإذن فهل يكون من حقنا أن نزعم أن الفرق بين العذرية والحسية هو فرق يرجع إلى المزاج والتكوين كما يرجع إلى مرحلة من العمر ، وأنه – على الأقل – أحيانا – فرق بين شعر الصبا وغضارة الشباب ، وشعر التجربة والتقدم فى العمر ومعاناة تقلب الزمان ؟

ان استرجاع أشعار وأخبار العذريين – وليس الاكتفاء بأحدهما – يرجح ذلك إلى حد بعيد ، ثم هناك أمر آخر لابد أن نضيفه ، فليس العقل هو الغائب فى القصيدة العذرية ، وليست النفس والمشاعر هى المتحدثة فى تلك القصيدة ، انهما ماثلان معا ، فى البناء أصلا ، أو فى أهم عناصره : اختيار المعانى والصور ، فأكثر هؤلاء العذريين – إن لم يكن جميعهم – قد أحب ابنة عمه ، أو من ليست عنه ببعيدة النسب ، والعصبية القبلية وصلة القرابة الحميمة لا تقبل أن تجعل من ابنة العم مثالا للاشتهاء أو الإغراء ، أو موضعا للحديث عن مغامرة غاب فيها

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص ٣١٩ .

العقل وانطلقت الرغبات من عقالها .. فكيف يغيب عن اعتبارنا أن هذه القصائد قد قالها ابن العم متغزلا فى ابنة عمه ؟ وأنه كان لذلك يحاول أن يوفق بين حبه الذى لا يطيق كتمانه وحق اللياقة الذى ينبغى التزامه فى الكلام عن فتاة كل ما يعيبها يعيبه فى الصميم ، بل يعيبه قبل أن يعيبها باعتباره (الرجل) الحارس للقيم ؟ !

أمام هذه الاعتبارات : الحب الأول ، وضرورة رعاية القرابة القريبة ، وسذاجة التجربة بدوافع العمر ، نستطيع أن نفهم خصائص الغزل العذرى ، وسلوك المحبين العذريين . وحين يتخلف واحد من هذه الاعتبارات سنجد أشياء أخرى فى الشعر وفى السلوك تترتب تلقائيا على هذا التخلف ، ويمكن أن نتذكر الآن بيتى ابن الرومى ، وقد أشرنا إليهما من قبل ، وهما :

هـويتك ناشـئا قبل التلاقى ... هوى حدثا تكهل باكتهالى
وكـــل مـودة قبل اختبار ... فتلك هـوى طبائع لا انتحال

لنجد فيهما الركائز الأساسية لما نسميه الحب العذرى .

ولعلنا أطلنا الوقوف مع العذريين ، وليسوا إلاّ صنفا من شعراء الحب ، ولكنهم الصنف النادر المحتاج إلى تبرير ، ومع هذا فإننا قد اخترنا شاعرين قد اتصفا بكل ما هو معاكس للعذرية مخالف لها شعرا وسلوكا ، لنرى : هل فى طبيعة الإنسان ما يصنفه من أول الأمر فى واحد من الصنفين ، أو أنه يتقلب بين المسالك والتجارب لتتأصل لديه خصوصيته بعد ذلك عبر معاناته الخاصة ؟ لقد تجنبنا أشهر الحسيين : عمر بن أبى ربيعة ، الذى حملت أخباره قدرا من التناقض ، يجعل من مغامراته الشعرية ذات الطابع الجنسى الصريح مجرد تصورات وتخيلات ، كما يجعل منها سجلا لوقائع ، مما قد يعنى أن الصورة المنتشرة عن الشاعر أو العاشق تتدخل البيئة فى صناعتها ، وبذلك تصنعها على النحو الذى تتطلبه أو تتمناه ، وإذا عرفنا أن شعر عمر كان ملهما للعذريين ، وأن هناك معانى مشتركة كثيرة بينه وبينهم ، تأكدت من وجه آخر فكرتنا عن الحب وألوانه المتداخلة ، تداخل ألوان الطيف . لقد اخترنا شاعرا لا يحد من يدافع عنه ، فعلى الرغم من أنه قد رشح لخلافة عمر بن أبى ربيعة فإنه لا يلقى العطف وحسن التوسل الذى يلقاه عمر عند الكاتبين عنه والمفسرين لشعره ، وهذا الشاعر هو العرجى ، حفيد عثمان بن عفان ، الذى اجتمع له النسب والثراء والشباب ، وسنرى من خلال أخباره كيف تقلبت به الطموحات فاستقر عند الحسية والمغامرة ، ونؤثر أن نورد طائفة من أخباره وصفاته دون تدخل فى سياقها ، ثم نرتب على ذلك بعض النتائج :

* ذكر أنه كان أزرق كوسجاناتيء الحنجرة ، وكان صاحب غزل وفتوة ، وكان من الفرسان المعدودين مع مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، وكان له معه بلاء حسن ونفقة كثيرة . وقد ذكر أنه باع أموالا عظاما كانت له ، وأطعم ثمنها فى سبيل الله حتى نفد ذلك كله ، وكان

قد اتخذ غلامين ،فإذا كان الليل نصب قدره وقام الغلامان يوقدان ، فإذا نام واحد قام الآخر ، لعل طارقا يطرق .

* وكانت حبيشة من مولدات مكة ، ظريفة صارت إلى المدينة ، فلما أتاهم موت عمر بن أبى ربيعة اشتد جزعها ، وجعلت تبكى وتقول : من لمكة وشعابها وأباطحها ووصف نسائها وحسنهن وجمالهن . فقيل لها : خفضى عليك ، فقد نشأ فتى من ولد عثمان رضى الله عنه يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه . فقالت : انشدونى من شعره ، فأنشدوها ؛ فمسحت عينيها وضحكت وقالت : الحمد لله الذى لم يضيّع حرمه !!

* وذكروا أن مولاة لثقيف تدعى كلابة كانت تلوم العرجى على ما يبلغها من شعره فى نساء قريش وتعد ذلك اجتراء منه ، وتتوعده إن هى لقيته أن تسوّد وجهه ، فبلغه ذلك عنها ، فقصد العرجى إلى قصر تنزل فيه مع سادتها ،واستسقاها ،فرفضت وأخذت ترميه بالحجارة تمنعه أن يدنو من القصر ، وقالت : « لا يوجد والله أثرك عندى أبدا فيلصق بى منك شر » . فانصرف العرجى متوعدا ، وكان ابعاده قصيدة قصصية مطلعها :

حور بعثن رسولا فى ملاطفة ثقفا إذا غفل النســـاءة الوهم

تروى مغامرة ليلية معها فى ضوء القمر ، بين الحسان والشراب ، امتدت حتى الفجر . وقام المغنون باذاعة القصيدة فبلغت من أراد العرجى أن تبلغهم من أولياء أمر كلابة ، فأوقعوها تحت التهمة ، وأنزل بها العقاب ، ولم تبرأ حتى مضى زمان ، وحملت على بعير بين غرارتى بعر ، فحلفت بمكة بين الركن والمقام أن العرجى كاذب فيما قاله .

وذكروا أن العرجى خرج إلى جنبات الطائف متنزها ، فنظر إلى أم الأوقص ، وهو محمد بن عبد الرحمن المخزومى القاضى ، وكان يتعرض لها ، فإذا رآها رمت بنفسها وتسترت منه ، وهى امرأة من بنى تميم ، فبصر بها فى نسوة جالسة وهن يتحدثن ، فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب ، فعدل عنها ، ولقى اعرابيا معه وطبا لبن ، فدفع إليه دابته وثيابه ، وأخذ لبنه ولبس ثيابه ، ثم أقبل على النسوة فصحن به : يا أعرابى ، أمعك لبن ؟ قال نعم ، ومال إليهن وجلس يتأمل أم الأوقص ، وتواثب من معها إلى الوطين ،وجعل العرجى يلحظها وينظر أحيانا إلى الأرض كأنه يطلب شيئا ، وهن يشربن اللبن ، فقالت له امرأة منهن : أى شىء تطلب يا أعرابى فى الأرض ؟ أضاع منك شىء ؟ قال : نعم قلبى ، فلما سمعت التميمية كلامه نظرت إليه فعرفته ، فقالت : العرجى بن عمر ورب الكعبة . ووثبت وسترها نساؤها . وقلن : انصرف عنا . لا حاجة بنا إلى لبنك . فمضى منصرفا[1] .

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ٣٨٣ - ٣٩٧ .

فى هذه الجملة من الأخبار التى يقدمها لنا مصدر واحد نجد التربة الصالحة لاستنبات العذرية ، وضدها ، كمرحلتين متعاقبتين من حياة العرجى : التركيب العضوى المميز والنزعة الدينية الجانحة إلى روح الفروسية ، التى يصدمها تجاهل طموحها ، فقد ذكر أنه حين تولى هشام بن عبد الملك أمل العرجى أنه سينال إمارة مكة أو المدينة ، غير أن هشاما آثر غيره ، فكان الانقلاب إلى اللهو فى حياة الفتى ثمرة مباشرة للخيبة وطريقا للتمرد على السلطة السياسية معا ، فإذا اعتبرت العذرية نتيجة لليأس والفقد والتمرد فإن الحسية العابثة أصدق منها دلالة على ذلك كما نرى . وفى الخبر الثانى يمكننا أن نرقب كيف يتلهف الناس على من ينوب عنهم فى التعبيرعن جوانب نفوسهم ويكيفهم فنيا مع الواقع الذى يعيشونه ، وفى الخبر الثالث نرى الاختلاق والرغبة فى التشهير تصنع قصيدة قصصية جيدة ، لو لم يرافقها هذا الخبر لاعتبرت « حكاية حال » عن الشاعر مباشرة ، وإذا صح هذا بالنسبة للشاعر العابث فما الذى يمنع من صحته بالنسبة للشاعر العذرى ؟ وإذا ربطنا بين الخبر السابق وهذا الخبر رأينا عمليا كيف يمكن أن تزاد بعض الأخبار وكيف تحجب ، يفعل الجمهور ويفعل الرواة ذلك ارضاء لأذواق الناس وتلبية لحاجاتهم النفسية وميولهم الخاصة ، ولسنا نشك فى أن الكثير من أخبار العذريين قد حجب عنا ، حجبه الرواة ، أو حجبه الناس ، لأنه لا يتسق وما تستدعيه الحبكة الفنية اللائقة بشخصية العاشق العذرى ، الذى ينبغى أن تسير حياته وفق نظام خاص ، وتتحرك عواطفه ضمن إطار محدد ، سواء أطاقته البشرية أو رفضته . وفى الخبر الأخير يجتمع الضدان على نحو نادر ، فقد ذكرت الرواية أن العرجى لم يكن عاشقا لأم الأوقص وإنما كان يدعى ذلك ليغيظ ولدها ، وهذا ضرب من العبث الخطير الذى كلفه حريته وحياته فيما بعد ، ولكن حيلته للاقتراب منها ، وما صحب هذه الحيلة من تصرفات تسلكه فى سبيل العذريين ، ولو أن اسم العرجى رفع عن هذا الخبر ووضع مكانه اسم واحد من مشاهير العذريين لما أنكرنا منه شيئا ، فلم يفعل الفتى أكثر من أن يتأمل المرأة عن بعد « وجعل العرجى يلحظها وينظر أحيانا إلى الأرض كأنه يطلب شيئًا » ! وليس هذا بفعل الفتى الماجن العابث الذى لا يعبأ بأن يجاهر بالغزل فى أم واحد من مشاهير قضاة العصر ، فضلا عن أنه خال أمير المؤمنين !!

على أننا يمكن أن نجد صور ومعانى العذرية منتشرة فى شعر هذا الشاعر ، ممتزجة بصور أخرى ليست على هذا المستوى من نقاء الشعور وغلبة الحنين إلى الشوق المتسامى ، وكأنه يحكى حركة القلب الإنسانى بين نوازعه كلها ، وليس مستخلصا لنازع واحد :

أرسلت ليلى رسولا : بأن أقم ... ولا تقربنًا ، فالتجنب أمثل
لعل العيون الرامقات لودنا ... تكذّب عنا ، أو تنام فتغفل
أناس أمِنّاهم فنثّوا حديثنا ... فلما كتمنا السر عنهم تقولوا

فما حفظوا العهد الذى كان بيننا ... ولا حين همّوا بالقطيعة أجملوا
فإن نساء قد تحدثن : أننا ... على عهدنا والعهد ان دام أجمل
فقلت وقد ضاقت بلادى برُحبها ... علىّ لما قد قيل ، والعين تهمل
سأجتنب الدار التى أنتم بها ... ولكن طرفى نحوها سوف يعمل
ألم تعلمى أنى وهل ذاك نافعى ... لديك وما أُخفى من الوجد أفضل
أرى مستقيم الطرف ما الطرف أمكم ... وإن أمّ طرفى غيركم فهو أحول
صحا حب من يهوى وأخلقه البلى ... وحبك فى مكنون قلبى مطلل
وبحت بما قد وسع الناس ذكره ... وأكثره فى الصدر منى مزمل
وما بحت إلاّ أن نسيت ، وإنما ... به كل من يهوى هوى يتمثل
فلا تجمعى أن تحبسينى وتمطلى ... أأحبس عن أرضى – هديت – وأمطل ؟
فإن ثوائى عندكم لا أزوركم ... ولا أنا مردود بيأس مزحّل
ولا أنا محبوس لوعد فارتجى ... ولا أنا مردود بيأس فأرحل
كمقتنص صيدا يراه بعينه ... يطيف به من قربه وهو أعزل
وممترس بالماء أحرقه الظما ... تحلاّ فلا يندى ولا هو ممثل[1]

لقد أطلنا الاقتباس من القصيدة لكى نؤكد أن هذا المنحى العاطفى الرفيع ليس فلتة أو نبوة البيت أو البيتين ، ويمكن أن نعود إلى القصيدة فى صورتها الكاملة ، وإلى قصائد أخرى من ديوان العرجى لنجد المحب العذرى كامنا تحت المحب الماجن أو مصاحبا له ، تماما كما وجدنا عبد الرحمن القس يعلن اشتهاءه لأن يضع فمه على فم سلامة ، بل اننا لا نرى وصف القس ومن على شاكلته من الزهاد بالعذرية ، لأنهم لم يكابدوا الهوى بل هربوا منه ، ولم يرتفعوا بصوره وأفكاره بل قاطعوها ، وعادوا إلى صوامعهم ، فعبروا عن عجزهم وتخوفهم ، وليست العذرية عجزا ولا خوفًا ، وإنما هى معاناة الانتظار والأمل والتسامى بالشعور .

أما الشاعر الآخر الذى اخترناه فإنه أشد من العرجى معاكسة لكل ما هو عذرى ، وهو موسوم بعلانية الفسق إن لم يكن ما هو شر من الفسق ، الشاعر الوليد بن يزيد ، ولن يتيسر لنا اقتباس مقاطع طويلة ، فليست لدى الشاعر قصائد طويلة ، وأكثر ما نجد له مقطوعات لا قصائد ، وإذ يشير جامع الديوان ومحققه المستشرق ف . جابر يلى إلى احتمال اخفاء بعض شعره أو وضع الشعر على لسانه لأسباب سياسية ، فإن ما أُخفى وما وضع سيكون هادفا إلى تشويه صورته كخليفة للمسلمين من البيت الأموى بخاصة ، وإذن فمن حقنا أن نعتبر ما بين أيدينا صورة منحازة ضد الشاعر ، ومع هذا فإننا سنجد تحت اللهو والمجون صورا ومشاعر

(١) ديوان العرجى ص ١٢ – ١٤ .

إنسانية ، لا نتردد فى إضافتها للعذرية ، لو أنها نسبت لغير هذا الشاعر التعس الحظ . وقبل أن نتوجه إلى الديوان لنقرأ هذا الخبر الذى يسوقه جعفر السراج ، يقول :

نظر الوليد بن يزيد إلى جارية نصرانية من أهيأ النساء يقال لها سفرى ، فجن بها ، وجعل يراسلها ، وهى تأبى ، حتى بلغه أن عيدا للنصارى قد قرب وأنها ستخرج فيه . وكان فى موضع العيد بستان حسن ، وكان النساء يدخلنه ، فصانع الوليد صاحب البستان أن يدخله فينظر إليها . فتابعه ، وحضر الوليد وقد تقشف وغير حلته ، ودخلت سفرى البستان ، فجعلت تمشى حتى انتهت إليه ، فقالت لصاحب البستان : من هذا ؟ فقال : رجل مصاب . فجعلت تمازحه وتضاحكه ، حتى اشتفى من النظر إليها ، ومن حديثها ، فقيل لها : ويلك ، أتدرين من هذا الرجل ؟ قالت : لا ! فقيل لها : الوليد بن يزيد ، وإنما تقشف حتى ينظر إليك ، فجنت به بعد ذلك . وكانت عليه أحرص منه عليها[1] .

فلنتأمل حرصه على النظر واكتفاءه به « حتى اشتفى من النظر » وسعيه إلى المراسلة ، وتواريه فى التقشف ، وما لكلّ ذلك من دلالات . بل نجد فى مقطوعاته القصيرة قصة غزال صادفناها من قبل عند قيس ، لاتكاد تختلف عنها فى شىء من حيث المظهر أو الغاية :

ولقد صدنا غزالا سانحا ... قد أردنا ذبحه لما سنح
فإذا شبهك ما ننكره ... حين أرجى طرفه ثم لمح
فتركناه ولولا حبكم ... فاعلمى ذاك لقد كان انذبح
أنت يا ظبى طليق آمن ... فاغْد فى الغزلان مسرورا ورُح[2]

ولهذا الشاعر فى شعره ألفاظ مكشوفة وخيال داعر ، ولكنه فى مثل هذه المقطوعات التى لا تتسق والقول بانحطاط عاطفته وشهوانيته ، يؤكد أن الميراث الغزلى العربى ينبع من واد واحد ، ويتلون حسب المواقف ، وليس بمستبعد أن الوليد يحاكى تجربة قيس ، وهنا لا تتخلى صفة التأسى بل تزداد قوة ، على أن ميزة التجربة عند قيس قائمة فى معنى الحضور الدائم ، إذ يقول عن الظبية :

أيا شبه ليلى لا تراعى ، فإننى ... لك اليوم من وحشية لصديق
ويا شبه ليلى لو تلبثت ساعة ... لعل فؤادى من جواه يفيق
تفر وقد أطلقتها من وثاقها ... فأنت لليلى – لو علمت – طليق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... ولكن عظم الساق منك دقيق

(١) مصارع العشاق جـ ٢ ص ١٦٨ .
(٢) ديوان الوليد بن يزيد ص ٢٩ ، ٣٠ .

سنوضح بعد قليل ما نريد بالحضور ، ونشير فى المثالين إلى أن الوليد أراد فى البداية أن يذبح الغزال ، ثم ما لبث أن أطلقه حين لمح فيه شبه محبوبته ، أما قيس فإنه لم يفكر فى الذبح بل الفداء ، فضلا عن حالة التجاوب الروحى الماثلة فى « لا تراعى » و « صديق » ، وتعلق راحته النفسية ببقاء الظبية إلى جانبه ، على أن قيسا يذكر أوجه الشبه ويحصرها فى العينين والجيد ، فى حين ترتفع مقطوعة الوليد عن الخوض فى التفاصيل الحسية ، وترعى جانب العاطفة المجردة ! وحين تذكر المصادر القديمة أن الوليد قد أحب سلمى أخت زوجته سعدى ، حبا عنيفا ، ظل يهيم فيه نحو عشرين عاما دون أن ينال بغيته ، إذ كانت تمتنع منه ، حتى إذا صار خليفة رضيت بالزواج منه ، لكن المنية لم تمهلها[1] ، حين تذكر المصادر ذلك فإنها تعطينا « الوجه الآخر » لهذه الشخصية الدرامية ، ومفتاح خاتمتها الفاجعة بعد حياتها القلقة ، وهذه القصة المحرومة عذرية من بدايتها إلى نهايتها ، حتى وإن كان الطرف الآخر فيها موسوما بكل ما يضاد ذلك .ها هى ذى سلمى بالنسبة إليه الغنى الحقيقى ، بل محور وجوده :

أرسلى بالسلام يا سلم إنى ... منذ علقتكم غنى فقير
فالغنى إن ملكت أمرك والفقر ... بأنى أزور من لا يزور
ويح نفسى ، تسلو النفوس ونفسى ... فى هوى الريم ذكرها ما يحور
من لنفس تتوق أنت هواها ... وفؤاد يكاد فيك يطير[2]

بل يرى أنها خير من الملك والخلافة ، وقد يقدم لنا أبياتا تختلط بأنقى أنفاس العذرية ، ولولا أنها منسوبة إليه لما خطر لِنَاقِدٍ مهما دق نظره أن ينسبها لغير شاعر عذرى ، أو من يقلد طريقتهم :

أرانى اللّه يا سلمى حياتى ... وفى يوم الحساب كما أراك
ألا تجزين من تيمت عصرا ... ومن لو تطلبين لقد قضاك
ومن لو مت مات ولا تموتى ... ولو أنسى له أجل بكاك
ومن حقا لو اعطى ما تمنى ... من الدنيا العريضة ما عداك
ومن لو قلت مت فأطاق موتا ... إذا ذاق الممات ،،، عصاك
أثيبى عاشقا كلفا معنى ... إذا خدرت له رجل دعاك[3]

ويتكرر هذا الوجدان المتوحد فى حب سلمى حتى يجعلها جنته وعوضه عن كل النساء :

---

(١) انظر مقدمة ديوانه : ص ١٣ .
(٢) ديوانه ص ٤٠ .
(٣) ديوانه ص ٥٢ .

ليت حظي من النساء سليمى إن سـلمى جنينتي ونعيمي

وهذه الاقتباسات جميعا ينبغي أن تجعلنا نتردد في الأحكام الجاهزة عن هؤلاء المحبين ، وأن نتريث في إطلاق أوصاف الحسية والعذرية ، وأن نقيد مثل هذه الأوصاف بحالات ، أكثر مما نقيدها بأشخاص ثم نقحم فيها متناقضات التجارب ، وتداعيات الأفكار .

هل يعني ذلك في النهاية أننا لا نوافق على تقسيم المحبين إلى حسيين وعذريين ؟ وقبل أن نجيب على ذلك يحسن أن نتذكر أن هذه القسمة ليست وقفا على التصور العربي لعاطفة الحب ، ولقد التقينا على مائدة أفلاطون بنوعين من الحب : سماوي وشعبي أو أرضي ، ونوعت ديوتيم في ألوان الحب بما هو أكثر من ذلك ، إذ هو ابن الفقر والحيلة . وبعيدًا عن هذا التصور الفلسفي فإننا نقدم مفهوما بديلا ، نرى أنه سيكون بمقدوره أن يتخطى الأطر الجامدة ، ويرفض صيغ الإطلاق ، ويتوقف عند درجة الشعور ومداه ، إذ قد رأينا من مشاهد الحب وأوصاف المحبين ما يناقض كل صفة مطلقة ، ويرفض الانضواء في ظل التصنيف المسبق ، ومن ثم فربما كان الأولى بالاهتمام رصد المستوى الذي ينظر منه الرجل إلى المرأة (أو المرأة إلى الرجل) ، ولا أجد تناقضا في قولي إن الرجل قد يتمنى المرأة تمنيا حسيا ، ولكنه يبقى مع ذلك في درجة من العفة ، بل في أرفع درجات العفة أيضا ، ولا يعني هذا أنه حريص على الكتمان ، كتمان مشاعره عن محبوبته أو عن الآخرين ، فنحن نتعامل الآن مع العالم الداخلي للمحب ، مع عدم إهمالنا لأسلوبه في التعبير عن حبه ، والأسلوب لا يعني – في صميم التصور البلاغي والنقدي – مجرد الكلمات المنطوقة أو المكتوبة ، بل يعني الفكر الذي يوجه هذه الكلمات ويختار نظامها ، وبناء على تصورنا هذا فإننا نرى محبا يرتبط بالراهن : الوقت الراهن – اللذة الراهنة – المرأة الراهنة – الفرصة الراهنة ، وينظر إلى المرأة وكأنها أداة لملء هذا الفراغ الراهن ، كما ينظر الجائع إلى الطعام ، علاقة توصف بالميل أو الحاجة أو الضرورة ولكنها لا توصف بما يدل على علاقة تبادلية يضمرها الطعام نحو الجائع كما أضمرها الجائع نحو الطعام ، وليس هذا الإحساس الراهن جنسي المظهر دائما ، لكنه جنسي الحقيقة ، وبذلك يدخل في إطاره بعض العلاقات التي لا تستهدف الاتصال الجسدي ، وقد تكتفي بتبادل الأحاديث مثلا ، ولكن بعدها عن التواصل الجسدي لن يكون براءة لها من الحسية أو ارتفاعا بها إلى مستوى العفة ، فالعفة هنا شكلية تماما ومرهونة بمجموعة من الاستطاعات الأخرى .

هذا المحب المتطلع إلى ملء « الراهن » يختلف اختلافا أساسيا عن محب آخر ينفذ في تطلعه إلى المرأة مخترقا مرحلة الراهن إلى الدائم ، والجزئي إلى الكلي ، وتملق الذات الخاصة إلى توحد ذاتين ورغبتهما في أن يصيرا ذاتا واحدة ، ليست هي ذات المحب بقدر ما هي ذات المحبوب ، إذ تتطلع إلى الصعود إلى مرتبته ونيل الصفاء أو الخلاص الروحي بنيل وصاله . فحين يقول شاعر :

أهابك اجلالا وما بك قـدرة علىّ ، ولكن ملء عين حبيبها

أو يقول المجنون :

تكـاد يدى تندى إذا ما لمستها فينبت فى أطرافها الورق الخضر

أو يقول أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متقدم عنه ولا متأخر

فإننا هنا بازاء مستوى من المحبين يختلف كثيرًا ، وليس الاختلاف هنا فى وجهة التطلع إلى المرأة ، وهل هو حسى أو روحى ، فى البيت الأول دلالة خضوع روحى ، وليس فى الباقى ما يدل على ذلك بشكل قاطع ، وقد كان المحبون العذريون يصفون محبوباتهم وصفا جميلا ، والفرق هو ما يمكن أن نسميه « حال التمام » فليس فى هذه الأبيات شعور مؤقت ، أو اصطياد فرصة سانحة ، إنه نوع من الاستغراق الكلى ، والتواصل المطلق اللامحدود ، وليس مهمًا أن يكون هذا الاستغراق روحيا أو حسيا ، وليس مهما أن يكون التواصل روحيا أو جسديا ، ليس لأننا لا نفرق بين أشواق الروح وأشواق الجسد ، وإنما لأن أشواق الجسد لا تصل إلى حلا الاستغراق الكلى ، ولا تبلغ درجة المطلق ، وهذه الصفات من خصائص التصور الذهنى الذى يتجاوز طاقة البدن وحاجاته ، ويعبر عن تطلع إلى ما يجاوز المحسوس والمرحلى ، وهذا يعنى فى النهاية أن الاستغراق الكلى والتواصل المطلق الذى يتحول به الاثنان (المحب والمحبوب) إلى واحد ، وعلى افتراض جسديته ، فإنه فى هذه اللحظة سينفك عن ذاته ، ويتحول إلى شىء تصورى غير مادى ، وسيرقى إلى درجة من العفة رائعة النقاء ، حتى وإن كانت موسومة عند المجتمع بمقاييس أخرى .

فى ظل هذا التصور لمعنى الحسية والعذرية ، ستكون الصفة المناسبة : الراهن والمطلق أو الواقعية والمثالية فى الحب ، وسيسمح مثل هذا التقسيم بتفاوت الدرجة بين المحبين ، وهو ما لا يسمح به وصف العفة مثلا ، فليس من الممكن أن نصف شخصا بأنه نصف عفيف ، فى حين أن التأرجح بين التأثر بالواقع الراهن ، والتطلع إلى المثالى والمطلق شىء يمكن تصوره ومراقبته ، على أن الذى يصل إلى مستوى الكلى عبر تجربة ومعاناة لا يجد لديه الرغبة فى العودة إلى الراهن أو الرضا بما يفرضه عليه الواقع ، وفى ظل هذا التصور سنجد أنفسنا أكثر توسعا فى فهم العذرية ، وبذلك لا تصير تلك العذرية مجموعة من الصفات الغريبة الشاحبة التى نمجدها ولا نمارسها ، وإنما ستصير صفة لكل حب حميم يأخذ على المحب مجامع قلبه ، ويجعل المحبوب جنته ونجاته معا ، وهنا لا يشترط أن يظل المحبوب فى مستوى الفكرة أو الرمز من أول الحب إلى نهايته ، بل يمكن أن يكون ، بل ينبغى أن يكون التواصل شاملا ، وكما تتحول

المادة إلى طاقة ، يتحول التوافق الكامل إلى حب عذرى حسب مفهومنا ، لا يرتبط بالحرمان ،وبقصص الحب الناقصة ، بل يرتبط باتحاد الوجدان واتحاد كل لذائذ الحب التى تروى البدن والروح ، أو لنقل : تروى البدن ، فيصادف اعتداله وسعادته ، فتنطلق الروح إلى آفاقها السامية .